إعادة قراءة الاستشراق

"دراسة في إمكان الإفادة منه"

إعداد

د.علي جابر العبد الشارود

أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية المساعد

بكلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة

جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

إعادة قراءة الاستشراق: دراسة في إمكان الإفادة منه

علي جابر العبد الشارود

قسم الدعوة والثقافة الإسلامية ، كلية أصول الدين والدعوة ، المنصورة.

جامعة الأزهر ، مصر

البريد الإلكتروني : dr_aligaber82@yahoo.com

الملخص :

لطالما كان مفهوم "الاستشراق" مجال جدل كبير. فبينما بدأ كمحاولة لفهم الثقافات الشرقية، تحّول تدريجياً إلى أداة لتبرير الهيمنة الغربية وتشكيل صورة نمطية عن الشرق. هذه الصورة النمطية، التي غالباً ما كانت سلبية ومُحملة بأحكام مسبقة، أثَّرت بشكل كبير على العلاقات بين الشرق والغرب.

تطرح هذه الدراسة سؤالاً هاماً: كيف يمكننا اليوم إعادة قراءة النصوص الاستشراقية بطريقة تتجاوز هذه الأحكام المسبقة؟ هل يمكننا الاستفادة من هذه النصوص لفهم أفضل للتاريخ والثقافات، مع تجنب تكرار الأخطاء التي وقع فيها المستشرقون في الماضي؟ فتسعى هذه الدراسة إلى تقديم قراءة نقدية جديدة للاستشراق، تهدف إلى فصل الحقائق عن الآراء، والتمييز بين العلم والسياسة، وذلك من خلال تحليل الجذور التاريخية والفكرية لهذا المفهوم.

الكلمات المفتاحية: لاستشراق . إعادة قراءة . نقد الاستشراق . الشرق والغرب . الهيمنة الثقافية . التحيزات الثقافية

ereading Orientalism: A Study of Its Potential Benefit

Ali Jaber Al-Abd Al-Sharoud

Department of Da'wa and Islamic Culture, Faculty of Fundamentals of Religion and Da'wa, Mansoura, Al-Azhar University, Egypt

E-mail: dr_aligaber82@yahoo.com

Abstract:

Orientalism has long been a highly contested concept. While it began as an attempt to understand Eastern cultures, it gradually evolved into a tool to justify Western dominance and to create a stereotypical image of the East. This stereotype, often negative and laden with preconceived notions, has had a profound impact on East-West relations.

This study poses a crucial question: How can we today re-read Orientalist texts in a way that transcends these preconceived notions? Can we utilize these texts to gain a better understanding of history and cultures, while avoiding the mistakes made by Orientalists in the past? This research aims to provide a new critical reading of Orientalism, seeking to separate facts from opinions, and to distinguish between science and politics, by analyzing the historical and intellectual roots of this concept.

Keywords: Orientalism – Re-reading – Criticism of Orientalism – East and West – Cultural hegemony – Cultural biases

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد

فيُعتبر الاستشراق من الموضوعات المعرفية التي أثارت جدلًا كبيرًا في الدراسات الحديثة، حيث يختلف تعريفه وأهدافه بناءً على الخلفيات الأيديولوجية والسياسية لمن يتناوله. فالاستشراق لم يكن فقط دراسة أكاديمية تسعى لفهم الشرق، بل أداة تداخلت فيها السياسة والهيمنة الثقافية، ما أدى إلى نشوء صورة نمطية عن الشرق وأفكار مسبقة عن الشعوب والثقافات الشرقية. وعلى الرغم من ذلك، لا يمكن إنكار القيمة المعرفية التي قدمها بعض المستشرقين في مجالات اللغة والتاريخ والثقافة. ومن هنا تتأتى الحاجة لإعادة قراءة الاستشراق، قراءة تتجاوز التحيزات السياسية والثقافية، لتعيد تقييم النصوص الاستشراقية وتضعها في سياقاتها التاريخية والثقافية المناسبة

وبالتالي تأتي هذه الدراسة في سياق هذه الجهود الأكاديمية الرامية إلى إعادة قراءة الاستشراق بوصفه موضوعًا مركبًا يجمع بين العلمي والسياسي والثقافي. فليس الاستشراق مجرد محاولة لفهم الشرق، بل إنه في كثير من الأحيان أداة لإعادة تشكيله أو السيطرة عليه معرفيًا. فهذه الدراسة تسعى إلى التعمق في هذا الميدان من خلال مراجعة الجذور الفكرية للاستشراق وتحليل سياقاته التاريخية والاجتماعية، مع التركيز على تقديم قراءة نقدية جديدة تتجاوز القراءات التقليدية.

مشكلة البحث:

تتمثل مشكلة البحث في الإشكالات المتعددة التي تحيط بمفهوم الاستشراق، الذي أصبح محملًا بأبعاد أيديولوجية تتجاوز وظيفته المعرفية. بالإضافة إلى ذلك، يرتبط الاستشراق بتصورات سلبية لدى العديد من الشعوب الشرقية، التي ترى فيه أداة للتدخل الثقافي والاستعماري. يطرح البحث سؤالًا جوهريًا رئيسا: كيف يمكن إعادة قراءة الاستشراق قراءة منهجية، تتجاوز التصورات النمطية والانحيازات الفكرية؟

وتتفرع من هذا التساؤل الرئيس هذه تساؤلات الفرعية:

١. لماذا ينبغي إعادة النظر في مصطلح الاستشراق؟

٢. ما مبررات إعادة قراءة الاستشراق وما هي الأخطاء المنهجية في القراءات السابقة ؟

٣. ما الطرق المنهجية لإعادة قراءة الاستشراق بشكل يوازن بين النقد والإفادة؟

٤- ما النتائج والآفاق التي تعود على الأمة من إعادة قراءة الاستشراق؟

أهمية البحث:

تبرز أهمية البحث في الحاجة إلى تقديم قراءة متأنية للاستشراق تأخذ في الاعتبار ظروف إنتاجه وسياقاته التاريخية. كما يساعد البحث في استكشاف إمكانية الاستفادة من الإنتاج الاستشراقي لفهم الحضارات والثقافات الشرقية، مع تعزيز الفهم المتبادل بين الشرق والغرب.

كما تتجلى أهمية دراسة الاستشراق اليوم في كونه ظاهرة معرفية وثقافية تستحق إعادة التقييم والتحليل، خاصةً مع التغيرات السياسية والثقافية العالمية التي أعادت تشكيل طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب.

إضافة إلى ذلك، يسعى البحث إلى تفكيك الصور النمطية التي أسهمت الدراسات الاستشراقية التقليدية في تكريسها عن الشرق. ومن خلال هذا التفكيك، يمكن تعزيز الحوار الثقافي بين الشرق والغرب بما يسهم في تحقيق فهم أعمق ومتوازن للعلاقات بينهما.

أهداف البحث:

١. التأكيد على إعادة قراءة النصوص الاستشراقية بموضوعية لتجاوز التصورات النمطية والانحيازات الفكرية.

٢. توظيف الإنتاج الاستشراقي كمصدر معرفي لفهم الحضارات والثقافات الشرقية

٣. تعزيز الحوار الثقافي بين الشرق والغرب وتفكيك الصور النمطية.

٤. تقديم منهجية جديدة لقراءة الاستشراق تراعي السياقات التاريخية والثقافية.
٥. دراسة تأثير التغيرات التاريخية والسياسية مثل العولمة والهجرة على الخطاب الاستشراقي.

فرضيات البحث:

١. ان الاستشراق ليس تيارًا موحدًا، بل هو ظاهرة متعددة المدارس والمناهج، تتباين باختلاف السياقات التاريخية والثقافية.
٢. يمكن للإنتاج الاستشراقي أن يكون مصدرًا غنيًا للمعلومات إذا تمت قراءته قراءة نقدية تراعي سياقاته المختلفة.
٣. يمكن استخدام النتاج الاستشراقي لتطوير الدراسات الشرقية دون الوقوع في فخ التحيزات
٤. أن الصور النمطية التي كرسها الاستشراق عن الشرق ليست بالضرورة انعكاسًا موضوعيًا، بل هي نتاج تصورات غربية ذاتية.
٥. أن إعادة قراءة الاستشراق بموضوعية يمكن أن تسهم في تصحيح العلاقة بين الشرق والغرب وتجاوز العداء التاريخي.

مناهج البحث:

يعتمد البحث على: المنهج النقدي التحليلي، حيث يقوم بتحليل الدراسات التي تناولت الاستشراق وتقييمها، وتقديم رؤية جديدة قائمة على التحليل والنقد لقراءة جديدة للاستشراق، يمكن الاستفادة منها عمليا.

حدود البحث:

يسعى هذا البحث إلى محاولة تقديم رؤية نظر جديدة حول التعامل مع النتاج الاستشراقي الهائل قديما وحديثا، هذه الرؤية مقدمة للعاملين في حقل الدراسات الاستشراقية فقط وليس لعامة القراء، وبالتالي فإن البحث سوف يكتفي بالتركيز على الأفكار دون الإغراق في المقدمات وشرح المصطلحات والتعريف

بالأعلام وكثرة الاستشهادات والتمثيل، التي هي بمثابة بدهيات للعاملين في هذا الحقل.

خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث

أما **المقدمة** فقد اشتملت على مشكلة البحث وأهميته وفرضياته والمنهج المستخدم، وأما **التمهيد** فكان حول مقدمة في الاستشراق. وجاءت المباحث على النحو التالي:

المبحث الأول: مبررات إعادة قراءة الاستشراق

المبحث الثاني: منهجية إعادة قراءة الاستشراق

المبحث الثالث: ثمرات إعادة قراءة النص الاستشراقي

التمهيد

مقدمة في الاستشراق

أولًا: إعادة قراءة مصطلح الاستشراق:

قد يتبدى لغير المتعمق في الدراسات الاستشراقية أن مصطلح أو لفظة "الاستشراق" ربما يكتفى بتعريفها من خلال ذكر أصل الكلمة اللغوي، ومن ثم دلالاتها الوظيفية، لكن بالنسبة للمختص؛ فإن هذه اللفظة لا ترقى إلى كونها مصطلحًا له دلالاته وأبعاده ومراميه المتفق عليها بين المختصين. وكما يؤكد حلّاق "يدرك أي متابع للحوارات حول الاستشراق وجود غموض شديد في المصطلح الذي يشير إلى هذا المبحث المعرفي"(١).

وربما نشأ هذا اللايقين حول الكلمة بسبب محملها الجغرافي، إذ يظهر سؤال مهم، هل ما يحدد الاستشراق ويصف كنه المستشرق هو مجرد الموقع الجغرافي الذي نشأ به والموقع الجغرافي الذي يدرسه، بغض النظر عن الثقافة التي يتبناها والموضوع المدروس الذي يعالجه، فإذا ما توافر هذان الشرطين: وجودٌ خارج دائرة الشرق مع اهتمام بموضوع الشرق، فثم الاستشراق!

وهذا بالتحديد ما ذهب إليه إدوارد سعيد في تعريفه للاستشراق: "فالمستشرق كل من يعمل بالتدريس أو الكتابة أو إجراء لبحوث في موضوعات خاصة بالشرق، سواء كان ذلك في مجال الأنثروبولوجيا أي علم الإنسان، أو علم الاجتماع، أو التاريخ، أو فقه اللغة، وسواء كان ذلك يتصل بجوانب الشرق العامة أو الخاصة، والاستشراق إذن وصف لهذا العمل"(٢).

(١) د. وائل حلاق، قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحداثي، ترجمة: عمرو عثمان، الطبعة الأولى، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠١٩م، ص٢٥.

(٢) إدوارد سعيد، الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة: د. محمد عناني، الطبعة الأولى، القاهرة، دار رؤية للنشر، ٢٠٠٦م، ص٤٤.

يعلق حلاق على تعريف سعيد قائلًا: وبالطبع لا يحل هذا التعريف المشكلة ولا يضع لها حدًا، إذ لا يمكنه تبرير ضم رجل مثل إيميل تيان، ذلك الباحث اللبناني الماروني الذي تعلم وكتب باللغة الفرنسية في القرن العشرين وبحث في تاريخ الشريعة الإسلامية، بطريقة كانت ستثير على الأرجح حفيظة سعيد بأكثر مما فعل برنارد لويس نفسه. كما لا يمكن لتعريف سعيد للاستشراق استيعاب أمثال المستشرق الفرنسي رينيه غينون. كما لا يمكنه استيعاب بُنية الخطاب الذي توجه ببصره إلى أمريكا الهندية في الغرب، على الرغم من تشابهها مع بُنية الاستشراق في تعريف سعيد(١).

ويضيف حلاق، ما هو الفارق بين "باحث مسيحي أبيض في مدينة هيوستن بولاية تكساس الأمريكية وآخر مسلم يمارس التدريس في القاهرة أو حتى تورنتو(٢) في إلحاق صفة الاستشراق "إنه يعزل الاستشراق ليصبح موضوعًا لتحليل خاص به. تسبب كتاب سعيد في خلق فرع خطابي حديث، حجب بُنى أعمق مما يمكن تسميته "الاستشراق غير الاستشراقي"(٣).

هذا اللبس والخلط بين الموضوع والجهة الجغرافية في المصطلح ساعدا المستشرقين على الطعن على هذا المصطلح وإلغائه من قاموس استخدامهم "ففي مؤتمر المستشرقين الذي عقد في باريس في سنة ١٩٧٤، تم الاتفاق على التوقف عن استخدام مصطلح "الاستشراق" بعد ملحوظة أنه كان يتسم بقدر غير قليل من الغموض والتعميم إلى جانب أنه نسبي، فنحن نقول عن الشيء أنه يقع شرقًا أو غربًا بالنسبة لموقع ما"(٤).

(١) انظر: وائل حلاق، قصور الاستشراق، ص٦٥-٦٦.

(٢) المرجع السابق، ص٢٩، .

(٣) المرجع السابق، ص٢٥، هامش رقم ١.

(٤) مقدمة ترجمة: الاستشراق الأمريكي الولايات المتحدة والشرق الأوسط منذ ١٩٤٥م، دوجلاس ليتل، ترجمة، طلعت الشايب، الطبعة الأولى، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٩م، ص٩.

وهذا ما جعل المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون يذهب إلى إن كلمة "الاستشراق" لم تعد تعني شيئًا، كما يرى أنه لا يوجد "شرق" وإنما توجد شعوب ومجتمعات وثقافات تميزها، وعليه لا يوجد "استشراق" وإنما أنظمة علمية لها موضوعاتها وإشكالياتها النوعية مثل علم الاجتماع والاقتصاد السياسي والألسنية والانثروبولوجيا وغيرها فهي في رأيه كلمة متناقضة مع حقائق الواقع، ولا يفهم منها شيئًا(١).

والحق فإنَ هذه الاعتراضات على مصطلح الاستشراق لها وجاهتها؛ إذ اعتماد الموقع الجغرافي مع عدم تحديده بدقة يطعن في دقة التعريف؛ فنحن نحتاج بدءًا أن نُعرف الشرق، جهة وحدودًا واعتبار شرقيته بالنسبة لمن، وبالطبع هذا يضفي مركزية مرفوضة للغرب، إذ يكون الشرق إنما هو شرق بالنسبة له.

ومن جهتي فأنا أرى الاعتراض الأهم يأتي بعد ذلك، وهو إننا إذا اصطلحنا جدلًا على هذه الجهة من الكرة الأرضية وأسميناها شرقًا، فما هو الجامع هنا بين الموضوع المدروس، هل يستوي دارس الصينيات والهنديات مع دارس الإسلام والعربية في إلحاق نفس التسمية "مستشرق" نحن هنا نجمع بين موضوعين مختلفين للدراسة وفي نفس الوقت مجبرون في ظل التعريف أن نستبعد من يدرس الإسلام مثلًا في أوربا وأمريكا أو البوسنة عن وصف الاستشراق باعتبارها تقع في مركز الغرب.

لكن يظل السؤال الأهم، هل الوصف بالاستشراق أو مستشرق، هو مجرد وصف حالة انشغال بالعالم الشرقي، أم هو اتهام وتشنيع في حد ذاته، لا ينجيه من العار إلا إضافة وصف كالإنصاف أو المصداقية أو غير ذلك.

(١) أحمد الشيخ، حوار الاستشراق: من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب، الطبعة الأولى، القاهرة، المركز العربي للدراسات الغربية، ١٩٩٩م، ص٣٩.

يقول حلاق: "إن الاستشراق . هذا المصطلح البسيط ذو المفهوم المركب . قد أسيء فهمه بشدة، بل تحول فعليا إلى شعارات سياسية بدائية وكلمات هتافية تجد لها مجالًا خصبا في حقل من الاستعراض اللغوي الأيديولوجي. وأصبح وصف باحث ما بأنه "مستشرق" ضربًا من الإدانة ونعتًا سلبيًا، بينما يظل مسمى "المؤرخ" و"المهندس" و"الاقتصادي" أو حتى "الأنثروبولوجي" محايدًا على الأرجح.

وبصورة مغلوطة لقد شوَّه تسييس مصطلح الاستشراق جوهر مضمونه وأفرغ مفهومه عن معناه الحقيقي، مُخفيًا تواطأه في بُنى الفكر التحتية وقواها الفاعلة. كما سطَّح هذا التسييس الاستشراق بصورة كبيرة، وحوله إلى مبحث لا قيمة له في البحث العلمي الجاد أو التنظير الفكري.

ومن ثم ظل هذا المفهوم . الذي تم حصره في التحيز والتغطرس والتخريب الثقافي والكولونيالية والسيطرة الإمبريالية . مقيدًا بإطار سياسي صارم لم يستطع تجاوز نطاق رؤيته الضيقة، ما أدى إلى عزله عن بُنى الفكر التحتية التي أنتجته في المقام الأول"[١].

إننا في حاجة إلى إعادة قراءة هذا المصطلح وتغييره إن لزم الأمر . بعد البحث الجاد والنظر في الرؤى المختلفة . وخصوصًا مع تقادم الزمن واختلاف طرق الاستشراق القديم وأدواته ومفاهيمه وأهدافه، وبالتالي فإنه لا يمكن وضع قالب مصطلحي يُعبر عنه بكلمة واحدة مثل الاستشراق لتشمل الكثير من المجتمعات والعلوم واللغات في حقل معرفي واحد يجمع كل هذه المواضيع المدروسة.

(١) قصور الاستشراق، مرجع سابق، ص٢٩.

ثانيًا: أسباب النظرة السلبية للاستشراق

منذ كتب إدوارد سعيد كتابه الأشهر والأهم "الاستشراق" حيث انتقد فيه الاستشراق وأعطى أيدولوجية خاصة للدراسات الاستشراقية، وكلمة الاستشراق تستخدم في سياق مرذول وغير مرغوب فيه[١] وينظر إليها بتوجس.

والحق فإن سعيدا لم يكن مجرد مؤلف انتقادي، بل كان أيضًا موضحًا للأهداف التي يسعى إليها الاستشراق، ومن خلال رؤيته يمكن إرجاع هذه النظرة السلبية إلى مجموعة من العوامل التالية:

١. خدمة الاستعمار

يرتبط الاستشراق تاريخيًا بحركات الاستعمار الأولى للشرق، ونشط دوره في هذه المرحلة بحيث كان سابقًا وممهدًا للاستعمار أو تابعًا ومعينًا، وقد استخدم الاستعمار الاستشراق كأداة لمعرفتهم بالثقافات الشرقية لتسهيل عمل الاستعمار في هذه الديار.

بالطبع "لم يتفق كل الباحثين الأوربيين للإسلام والشرق في الرأي: فبعضهم عبر عن احترامه للإسلام، بينما استخف به آخرون، وبعضهم دعم بحماس التوسع الاستعماري، بينما عارضه آخرون. ومع ذلك طرح باحثون في السبعينات وما بعدها بقوة أن الاستشراق كمشروع فكري كان مرتبطًا بطرق مهمة بالاستعمار الأوربي المعاصر، وأن نوع المعرفة الذي كان الاستشراق كفرع بحثي يميل لإنتاجه، قد استعمل كثيرًا لإضفاء الشرعية على ممارسة السلطة الأوربية على العالم الإسلامي وتدعيمها"[٢].

---

(١) انظر: أحمد الشيخ، حوار الاستشراق، مرجع سابق، ص٣١.

(٢) زكاري لوكمان، تاريخ الاستشراق وسياساته: الصراع على تفسير الشرق الأوسط، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠٧م، ص١٥١. ولمزيد من التفاصيل حول خدمة الاستشراق للاستعمار يراجع ص١٥٠ وما بعدها.

٢. التحيز الثقافي والديني

غالبًا ما صوّر المستشرقون الشرق كعالم "متخلف" دينيًا وثقافيًا وسياسيًا، وكان لكل مستشرق تحيُّزاته القومية والثقافية والدينية ضد الشرق، إضافة إلى تبعيته الدينية والسياسية التي استشعر واجبًا تجاهها، مما جعله كل هذا أن يكون غير منصف ومنحاز دائمًا في دراساته، وأهدافه، ومناهجه، واستنتاجاته.

هذا التحيز أورث نوعًا من العداء والنقمة من لدن الشرقيين سيما عندما يكون التحيز متبوعًا بالافتراء على المقدسات والمسلَّمات لدى الشرق والإسلام، وبالتالي أضفى نظرة متخوِّفة لكل من يعمل في هذا الحقل خصوصًا عندما يتناول ما يمس الدين والتاريخ بالدراسة.

٣. النظرة الاستعلائية

جعل المستشرقون من الغرب المركز الذي يحاكم الأطراف تبعًا لقيمه، وأفكاره ومبادئه، وأنَّ الشرق ما هو إلا موضوعًا للدراسة دون اعتراف بإنسانيته وثقافة الشعوب الشرقية، واحترام لتاريخها وحضارتها.

وقد ظهرت الكثير من الدراسات الاستشراقية التي تصف الشرق بالبدائية وعدم تقبله للتحضر، منطلقة من فكرة تفوق الإنسان الأبيض، واستخدمت "الدراسات العلمية الزائفة" في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لدعم فكرة أنَّ الجنس الأبيض متفوق جسديا وعقليا على الأجناس الأخرى.

ومن ثم كان الرد الفعل الطبيعي هو الضغينة العامة على من يتناول مثل هذه الأفكار ويروج لها.

المبحث الأول

مبررات إعادة قراءة الاستشراق

أولًا: أهمية إعادة قراءة الاستشراق

إن الثروة الطائلة والكم الهائل الذي خلَّفه الاستشراق، يجب النظر فيه مرة بعد المرة، لا يُكتفى بما قد تم دراسته فيه، ولا بالنتائج التي استُخلصت من ذلك، كما أنَّه ينبغي أن يقرأ قراءة متأنية تأخذ في الحسبان طبيعة الزمان والمكان التي تم إنتاج الاستشراق فيها، أو بمعنى آخر وضع الاستشراق في سياقه الزماني والمكاني وحتى العراك الفكري والسياسي، حتى يمكن الحكم عليه بمنظار عصره وواقعه. كما يجب أن يقرأ الاستشراق ككل متكامل من غير بتر أجزائه والحكم على كل جزء على حدة.

فقراءة الاستشراق . كما يقول حلَّاق . "بوصفه مجموعة من القضايا التي تعبر عن تصويرات سلبية للإسلام والعرب، يجب علينا فهمها ومناهضتها، لا سيما وقد أسهمت في السيطرة على العالمين العربي والإسلامي، وإخضاعهما للكولونيالية ..... فإن هذه القراءة للاستشراق لا تعدو كونها سياسية، فالاستشراق ليس مجرد مشروع سياسي كما اعتقد إدوارد سعيد[١].

(١) وجه ألبرت حوراني نقدًا لاذعًا لإدوارد سعيد، متهمًا إياه بأنه شوه إلى الأبد لفظة الاستشراق كـ"حقل علمي" فلم يعد من الممكن الاعتداد بالجهود المنصفة في هذا الحقل، مثل أعمال مارشال هودجسون وكلود كاهن وأندريه ريمون. ويشير حوراني إلى تعمد سعيد تغييب ذكر هؤلاء المستشرقين الذين يشذون عن المنظور الذي أعطاه سعيد للاستشراق. وقد رد سعيد على ذلك بالقول بأن ذلك "لا يتعارض مع ما أقوله في الاستشراق، مع فارق أنني ألح على أن خطاب الاستشراق تسوده بُنية من المواقف التي لا يمكن استبعادها أو غض النظر عنها. إنني لا أُحاج أبدًا بأنَّ الاستشراق شرير أو زلق أو هو ذاته دائما وعند كل المستشرقين؛ ولكنني أقول بأنه جهاز تجمع المستشرقين له تاريخ نوعي في التواطؤ مع السلطة الإمبريالية"
(مقدمة أسامة عاوجي، لكتاب مارشال هودجسون، مغامرة الإسلام: الضمير والتاريخ في حضارة عالمية، الطبعة الأولى، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٢١م، ٢٤/١، هامش رقم (٣٦)؛ إدوارد سعيد، تعقيبات على الاستشراق، ترجمة وتحرير: صبحي حديدي، الطبعة الأولى، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٦، ص١١٦).

فالنظر إلى الاستشراق بوصفه مشروعًا سياسًا، يشبه النظر إلى قمة جبل الجليد فوق سطح الماء في البحر، أي رؤية ذلك الجزء الصغير من الجبل والذي يخفي بعدًا بُنيويًا أهم وأعمق"(١).

كما أنَّ تصنيف الاستشراق إلى مجموعة من المهمات التي خدم بها المستشرقون مآربهم أو استُعملوا من غيرهم فعملوا لصالح الاستعمار والكنسية مثلًا، فإن هذا التصنيف وإن ساعد الباحثين المسلمين في تفنيد كل سوءة جاء بها الاستشراق؛ إلا أن التغول في التشكيك هذا قد حرم الباحثين نظرة الإفادة التي يمكن كسبها من هذا الجهد الاستشراقي.

فبالإضافة إلى كثير من الجهود الاستشراقية المنصفة التي غفل عنها الباحثون . حيث جل اهتمامهم البحث في سيء الاستشراق . فإنه يمكن الإفادة حتى من الكتابات الاستشراقية بشكل عام ومجمل من ناحيتين على الأقل:

الناحية الأولى: أن هذه الكتابات قد كان لها إسهامها في تشكيل العقلية الأوربية معرفة وتصورًا عن حضارة المشرق بما فيها من دين ولغة وخصائص مميزة، وبالتالي فإن قراءة الاستشراق هنا تكون "من أجل دراسة المعرفة المهيمنة التي أنتجتها أوربا منذ القرن السابع عشر تحت اسم عصر التنوير، والتي ما لبثت أوربا أن فرضتها على سائر العالم"(٢).

إن فهم هذه الفترة التاريخية جيدًا، وفهم مراحل تطور الغرب من جهة أفكاره، ومن جهة تصوراته عن الشرق . والذي يمثل العالم الإسلامي أغلبه . لا يتأتى من غير قراءة وفقه الاستشراق.

أما الناحية الثانية: فهي التعرف على أنفسنا كحضارة كان لها تأثيرها وتأثرها، وما حدث من تثاقف بيننا وبين الغرب أثر فينا إيجابًا وسلبًا.

(١) وائل حلاق، قصور الاستشراق، ص١٣.

(٢) المرجع السابق، ص١٤.

فحتى نفهم أنفسنا، ونضع تصوراتنا الشخصية تحت بؤرة الشعور والإدراك؛ فإننا بحاجة إلى إعادة قراءة المعرفة التي أثَّرت فينا، وأسهمت في إنتاج رؤانا للعالم ولأنفسنا، فالهيمنة المعرفية الغربية، والتي قد كان لها دورها المُعتبر في توجيه رؤانا قد وصلت إلينا خفية أو جهارًا عن طريق العمل الاستشراقي، وكذلك إعادة قراءة هذه المعرفة يعيننا على إدراك نظرة الآخر لنا.

ليس من المنطق ولا من العدل أن نطالب المستشرقين بالعمل من أجل حضارتنا وأمتنا، فإذا عملوا من أجل مصالحهم وأيديولوجياتهم حقدنا عليهم وسلبناهم جهودهم. إن المنطق والعدل يقتضيان أن نستفيد من إنجازاتهم الكثيرة، بغض النظر عن دوافعهم ونواياهم. لا ينبغي أن يكون المستشرق الذي نرغب في الاستفادة منه إسلاميًا في ميوله أو عربيًا في انتمائه، ثم نطالبه بعد ذلك بأن يميل إلى أهل السنة في عقيدته، مما يؤدي إلى تجريح من لا يتوافق مع تلك الشروط. فإذا اهتم أحدهم بدراسة التصوف الإسلامي، اتهمناه بأنه يسعى لتقليص الحراك الإسلامي وفاعليته، وإذا انصرف نحو الكلام والفلسفة، وجدنا فيه علة أخرى. هذا النهج يقلل من فرص الاستفادة من الموروث الاستشراقي الهائل الذي يمثل فرصة قيمة لفهم فترة تاريخية مهمة كان لها تأثير كبير على المجتمعات الإسلامية.

إن الاستشراق النافع الإيجابي هو فقط ما يعتمد المنهج العلمي في إنتاجه، سواء كان هواه إسلاميًا أم معاد للإسلام وكل ما هو إسلامي.

لا ينبغي أن نقرأ الاستشراق كالمدقق اللغوي الذي يهتم فقط بالأخطاء ولا تقع عينه إلا عليها، ولا يعنيه الغالب الصحيح، فالصحيح ليس مهمته، وإنما العكس تمامًا، ينبغي التركيز على الصحيح . وهو كثير . والاستفادة منه.

حتى إثارة الشبهات والتشكيك في الإسلام، والذي يعتبره الكثيرون هو المقصد الخفي والأساس للاستشراق، سواء كان طعنًا مباشرًا في الإسلام، أو طعنًا غير مباشر من خلال إلحاق الاتهامات الزائفة؛ فإن هذه أيضًا لا يخلو من إمكان الإفادة منه.

ففضلا عن كونه يُسهم في تعزيز الجانب المعرفي في الدراسات الإسلامية عن طريق البحث عن الحقائق الجلية، ودفع الأفكار الواهمة؛ فإنه أيضا يفتح آفاق الفكر لتجلية حقائق الإسلام وإبراز محاسنه.

وربما كانت بعض الشبهات الكامنة داخل بعض النفوس والتي لا تظهر للعلن؛ تكون سببا في منع صاحبها عن اتباع الإسلام، أو الإيمان الكامل به، فإن الاستشراق مع إثارته لهذه الشبهات ووضعها في قوالب، ومع تجلية هذه الشبهات والرد عليها يُسلم من في قلبه مثقال ذرة منها إلى سبيل الهداية.

وبالتالي فإننا إذا تجاوزنا خبث طوية المستشرق أو طيبها؛ فإن هذه الشبهات قد تسهم إسهامًا بليغًا في نشر حقائق الإسلام، وربما استمع إنسان إلى شبهة فهيج في نفسه الفضول لتتبعها وسماع المناورات حولها من طرفي العرض والرد، فإذا جُليت وحسن الرد؛ كان ذابًّا عما في نفسه.

وفي النهج القرآني تناول للشبه التي عرضت في فترة نزوله، وربما ذلك كان من هذا الوجه.

إن المستشرق الذي يمدح الإسلام أو التراث الإسلامي، في الواقع لا يقدم جديدًا يستفاد منه، اللهم إلا التباهي بأن المديح جاء من جانب معاد للإسلام، والفضل ما شهد به الأعداء. لكن إذا أردنا فهم النظرة الغربية الحقيقية للإسلام، ومن ثم كيفية التعامل معها، فليس من بُد من قراءة التراث الاستشراقي المعادي، لا من أجل الرد عليه ومحاصرة شبهه؛ وإنما من أجل فهم العقلية الغربية وطريقة التفكير والمخاوف، ومن هذا المنطلق يتم وضع البرامج الدعوية وحتى السياسية المناسبة لهم، وتحييد الآخر الناقم حتى لا يمتد تأثيره هنا وهناك.

وحتى يمكن الاستفادة من هذه الثروة الاستشراقية الهائلة؛ فإنه ينبغي قراءة الاستشراق قراءة استردادية، في ضوء الزمن والأحداث التي تمت فيه، فسواء أكان الاستشراق في خدمة الاستعمار أم في خدمة الكنيسة؛ فإنه قد ترك ما يستفاد منه،

وقد جاء الحين لقراءة هذه الفكر الاستشراقي قراءة متأنية بعيدة عن أجواء المعركة.

ثانيًا: أخطاء منهجية في قراءة الاستشراق

مما يستدعي إعادة قراءة الاستشراق، ذلك النهج الذي اتبعه أكثر المهتمين بهذا العلم بدءًا من إدوارد سعيد وحتى اليوم، والذي يضع الاستشراق كله في مصاف واحد مقدِمًا سوء النية لدى المستشرق حتى وإن أنصف في كتاباته، أو على الأقل تصنيف المستشرقين بين منصفين وغير منصفين، مما يجعل نتاج المستشرق الذي يُصنَّف في دائرة عدم الإنصاف كله في سلة واحدة، ولا يستفاد منه. فالاستشراق بشكل عام هو ظاهرة عدائية في أغلبه، هذا النهج وإن كان يهدف إلى التحري فيما يكتبه المستشرقون، ومحاولة الرد عليهم؛ إلا أنه قد أفقدنا الكثير من المزايا التي يمكن الحصول عليها مهما كان عدائية المستشرق وبواعثه.

ومن ثم يمكن ذكر أهم هذه الأخطاء المنهجية في:

١. قراءة الاستشراق كتيار عام

إن الدراسة المنهجية المنصفة للنتاج الاستشراقي ترى أن المدارس الاستشراقية مختلفة الوجهة والباعث والأسلوب، كما أن المستشرقين منهم من عمل بشكل فردي رغبة ذاتية في الدراسات الشرقية فأخطأ وأصاب، وبعضهم عمل بشكل أكثر نظامية سواء كان في مراكز استشراقية أو جامعات أو حكومات، ومن الطبيعي أن يكون هناك كثير من الخلاف بين المستشرقين وبين المدارس الاستشراقية من ناحية المنهج والأسلوب والهدف، وبالتالي فإن وضع المستشرقين في سلة واحدة وقراءة الاستشراق كتيار عام يجافي المنهج العلمي الصحيح، ويزيد الفجوة عن الفهم الصحيح للاستشراق.

وكما يقول الدكتور قاسم السامرائي: "إن الاستشراق بتباين ضروب مظاهره ودراساته وأعلامه، لم يكن لأجل العلم الصرف، وأننا نخطئ أيضًا إذا قررنا هذه

النتيجة حكمًا عامًا لأن هذه النتيجة تضم أولئك الذين آثروا الانزواء في صوامع العلم لأجل العلم والمعرفة.

ومن هنا أرى أن الاستشراق بتياراته المختلفة يجب ألا يدرس كتيار عام، أو ظاهرة عدائية؛ بل أرى أن يُدرس المستشرقون على أساس الأفراد والشخصيات، بكل ما في البحث من جدية وبكل ما في الدراسة من موضوعية وتجرد، على أن تكون هذه الدراسة مبنية على ما كتب هذه المستشرق أو ذلك بصورة أوضع وأوثق من كتاباته المنشورة ثانيًا، وعنها يصبح الحكم الموضوعي عليه"[١].

وقد أنصف المستشرق الفرنسي أرنالديز في قوله: "بالطبع هناك العديد من الأعمال الاستشراقية تمت من خلال علاقاتها بأوضاع سياسية معينة لكن هذه ليس نقدًا للاستشراق بصفة عامة؛ وإنما ضد دراسة الشرق من منظور سياسي معين أو من خلال ارتباطه بوظيفة سياسية ما، لذا لا ينبغي التعميم عندما نتحدث عن الاستشراق؛ لأن هناك نصوصًا كثيرة دُرست وحققت من خلال أولئك الذين نطلق عليه اسم مستشرقين الأمر الذي سمح بتقدم المعرفة بالإسلام"[٢].

٢. دراسة الاستشراق كظاهرة عدائية

لا يُنكر أن كثيرًا من المستشرقين كان جل عملهم خدمة للاستعمار أو تشويها للدين الإسلامي، وغالبًا ما يشير المؤرخون إلى أن بدايات الاستشراق ونشاطاته الأساسية كانت وسيلة لفهم العالم الإسلامي بهدف القضاء عليه. ولكن، لا يمكن تجاهل أن هناك عددًا من المستشرقين قدموا إسهامات مفيدة ومنصفة للعالم الإسلامي.

لذلك فإن تصنيف الاستشراق كظاهرة عدائية، يضع حاجزا نفسيًا يمنع

(١) الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، الطبعة الأولى، الرياض، دار الرفاعي للنشر والتوزيع، ١٩٨٣م، ص١٣٩.

(٢) أحمد الشيخ، حوار الاستشراق، مرجع سابق، ص٥٦.

الاستفادة منه، ويضع من يسعى إلى الاستفادة والإنصاف في موضع التهمة، والحق فإنه إضافة إلى أنه لا يمكن الحكم العام على الاستشراق؛ فإنه لا يمكن إطلاق حكم عام على كل مستشرق على حدة؛ فإن أكثر المستشرقين تحيزًا وبعدًا عن الإنصاف، لا يعدم الاستفادة من نتاجه العلمي بشكل أو بآخر.

"إننا في حاجة إلى العناية بألا نخلط بين توجه نظري أو تفسيري معين، وبين الانحياز أو الحكم المسبق، أو التنميط أو العنصرية، أو نقتصر في تفسير هذه التوجهات كليًا، أو حتى أساسًا على هذه الميول. وسوف نرى أن كثيرين من الغربيين بمن فيهم مدعو المعرفة، قد احتضنوا بالفعل ولقرون ـ وبالطبع حتى يومنا هذا ـ واعتنقوا أحكامًا مسبقة فجَّة عن الإسلام والمسلمين والعرب وآخرين، ومع ذلك نحن في حاجة لأغراض التحليل على الأقل، إلى أن نميز بوضوح بين مثل هذه المشاعر، مهما كانت منفرة أو خبيثة، وبين الإطار التفسيري الذي يحتضنه باحث فرد أو مجموعة من الباحثين في حقل معين. فهناك عدد معتبر من الباحثين احترموا الإسلام بشدة، وتعاطفوا مع معتقدات أتباعه وطموحاتهم، ولكنهم مع ذلك نشروا أعمالًا قال عنها نقادها أنها صراحة أو ضمنًا ابنة إطار تفسيري قابل للنقد"(١).

فبدلًا من التماس العذر لاختلاف الثقافات والتركيز على الإيجابيات وتغافل الهنات، نجد بعض المثقفين الإسلاميين يكيلون النقد ويركزون جهدهم على تشويه الصورة الكاملة للمستشرق مهما كان عمله مفيدًا ونافعًا يمكن الاستفادة من أضعاف أضراره.

على سبيل المثال كما يذكر أحمد الشيخ في حوار الاستشراق عن المستشرق الفرنسي جاك بيرل "لا يمكن للمرء أن ينسى صوته وهو يقرأ سورة الفاتحة، ولا

(١) زكاري لوكمان، تاريخ الاستشراق وسياساته، مرجع سابق، ص٣٦-٣٧.

يمكن أن ينسى ولعه وعشقه للغة العربية وعالمها، ولا يمكن أن يتجاهل مواقفه في احترام هُويّة وأصاله الآخر. باختصار لا يمكن للمرء أن ينسى جاك بيرك وكتاباته، وهو الذي تفاخر ذات يوم بأنه نادرا ما عاب عليه أحد من المسلمين خطأ في فهم الإيمان الإسلامي. ومع ذلك رحل بيرك حزينا لا لأن آماله وأحلامه لم تتحقق فحسب؛ بل لأنه هو ذاته أصبح موضوعًا لنقد مرير خصوصًا من داخل الثقافة العربية الإسلامية التي أحبها ودافع عنها أمام أعاصير الحقد السائد في الغرب إزاء الإسلام والمسلمين. أليس هو الذي قال يوما في مقابلة له مع التلفزيون الفرنسي "أنا كاثوليكي يحب الإسلام".

عندما التقيت به للمرة الأخيرة، وكان ذلك قبل صدور الطبعة الثانية لترجماته لمعاني القرآن الكريم، لم يستطع إخفاء اليأس والمرارة من الانتقادات التي وجهت إليه وإلى ترجمته"[١].

إذن فليس من الإنصاف ولا حتى من البدهيات أن نطالب المستشرقين بالتزام وجهة خاصة تناسب مع ثقافتنا وديننا، وإن لم يكن في صفنا فهو عدو لنا، وقد عبر عن ذلك مكسيم رودنسون خير تعبير في حوار الاستشراق حين قال: "أنا لم أنكر أن كثيرًا من الغربيين الذين يدرسون الشرق يقومون بذلك انطلاقًا من نظريتهم الخاصة، من نظرة مجتمعاتهم، وبالطبع فإنهم يرون أشياء ولا يرون أشياء أخرى، يفهمون أشياء ولا يفهمون أشياء أخرى، لكن ليس في هذا كارثة كبرى، ألم يكن المسعودي يمارس "نظرة الآخر" في الرحلات التي كان يقوم بها؟! إنها إذًا ليست جريمة الباحث الغربي فقط، إنني أرى أن هناك نوعًا من العنصرية ضد الغرب، وأنا ضد العنصرية بشكل عام ... فالقول إن الدراسات الاستشراقية تمثل "نظرة الآخر" يتضمن اتهامًا مبطنًا، اتهامًا لأن الباحث الغربي قد اهتم

(١) حوار الاستشراق، مرجع سابق، ص١٩.

بالشرق، وهكذا هناك اتهام في حالة الاهتمام بقضايا الشرق، واتهام في حالة عدم الاهتمام به أليس هذه عنصرية ضد الغرب"[١].

٣. انتقاد المستشرقين لكونهم غير مسلمين

غير منكور أن يكون هناك كثير من التخوفات عندما يناقش المستشرق غير المسلم القضايا الإسلامية الدقيقة، سواء كان مادحًا لها أو ذاما، إذ من الطبيعي أن تصدر كثير من التساؤلات حول هدفه ونيته، وهل رؤيته تنطلق من وجهة علمية بحثية أم إن وراء الأكمة ما وراءها، لكن هناك فرق بين التخوف والرفض والطعن في النوايا من دون أدلة، مما حدا بعض المستشرقين القول بأنه ليس هناك سبب وجيه لنقد المستشرقين إلا أنهم غير مسلمين، كما صرح بذلك المستشرق الفرنسي روجيه أرنالديز.

يقول أرنالديز: "المسلمون، من حيث المبدأ، يشككون عندما يأتي باحث غير مسلم ليتحدث عن الإسلام. يعتقدون أولًا، أنه للحديث عن الإسلام لابد من معرفة دقيقة باللغة العربية، ولكي تعرف جيدًا اللغة العربية لابد أن تكون مسلمًا حتى إنه ينظر لبعض المسيحيين العرب على أنهم ليسوا عربًا مثل غيرهم ... وعندما يدرس مستشرق اللغة العربية، ينظر إليه على أنه يريد اختراق الفكر الإسلامي هذا عن الجانب الأول أما ثانيًا، فمن المؤكد كذلك أنه حتى قبل الفترة الاستعمارية، كان هناك التراث الجدلي المسيحي ضد المسلمين، كما كان هناك العكس من قبل المسلمين ضد المسيحيين، ونظرًا لهذا التراث؛ فإنه ينظر للمستشرقين إذا كانوا من المسيحيين أو من ورثة المسيحيين أو من المنطلقين بشكل عام من حضارة مسيحية، ينظر إليهم بأنهم لم يتخلصوا بعد من هذا الجانب المتعلق بالعداء القديم تجاه الإسلام والمسلمين"[٢].

(١) من حوار أجراه مع أحمد الشيخ في حوار الاستشراق، ص٣٩.

(٢) حوار الاستشراق، مرجع سابق، ص٥٤-٥٥.

لكن مع عدم إغفال كثير من التجني لدى المستشرقين على الإسلام المنطلق أساسًا من خلفياتهم الدينية المغايرة والحاقدة أحيانًا؛ إلا أنه ينبغي عدم الوقوع في شَرَك التعميم من ناحية، ومحاولة الاستفادة من هذه الكتابات قدر الإمكان من ناحية ثانية.

وكما يقول رودنسون: "فنظرة على جذور الإسلام من شخص غير مسلم لها أهمية كبيرة؛ بل إن الدراسات التي تمت على جذور المسيحية واليهودية حققت نجاحًا كبيرًا، عندما انفصل الباحثون عن هذه الديانات، أي تحقق وجود نظرة نقدية إزاء موضوع البحث، لكن يوجد أيضًا أخطار في "نظرة الآخر" خطر النظر للآخرين على أنهم جهلاء بينما نحن على صواب. نعم يحدث هذا وهو من الأمور المرذولة لكنها من الأمور الشائعة. ما أطلبه هو "نظرة نقدية" لنظرة الآخر من كلا الطرفين، أي إزاء رؤية الشرق للغرب أو رؤية الغرب للشرق"[١].

لقد أظهر جان جاك واردنبرغ (Jean Jacque waardenburg) في كتابه "الإسلام في مرآة الغرب: كيف درس بعض المستشرقين الغربيين للإسلام وشكلوا صورة هذا الدين" كيف كانت أعمال علماء الإسلاميات المؤسسين، إجناتس جولد تسيهر، لركستيان سنوك هرخوونيه، كارل هتريش بيكر، دانكن ماكدونالد، لويس ماسينون مطبوعة ومتأثرة بعمق بالتزاماتهم المسبقة. يركز واردنبرغ على الولاء الثقافي لدى هؤلاء العلماء البارزين.

لا يعني ذلك القول باستحالة دراسة أحد التقاليد الدينية بنزاهة من قبل الملتزمين بتقليد ديني آخر، كما يقال عادة ففي النهاية؛ فإن الإيمان والاعتقاد مسألة شخصية، وغالبًا ما يكون ما يكون من الأسهل على أصحاب الأمزجة المتقاربة أن يفهموا بعضهم البعض عبر خطوط التقاليد الدينية والثقافية المختلفة،

(١) المرجع السابق، ص٤٠.

بالمقارنة مع قدرة أصحاب الأمزجة المتخالفة على فهم إيمان الآخرين، حتى لو كانوا من أتباع ذات الديانة وذات العقيدة"[١].

"فنجد مثلًا بأن أصحاب المنزع الروحي/ الصوفي أقدر على فهم التجارب الصوفية في الأديان المختلفة، في حين أنه قد يكون عاجزًا عن فهم الجوانب اللاهوتية أو الفقهية العملية وتقديرها حتى في الدين الذي ينتمي إليه"[٢].

ثالثًا: تغير السياقات التاريخية والسياسية والفكرية

مما يدعم أهمية إعادة قراءة الاستشراق ضرورة مواكبة التغيرات التي طرأت على الفكر والنتاج الاستشراقي، نتيجة تغير السياقات التاريخية والسياسية التي شهدها العالم على مر العقود، والتي أثرت على طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب، وبالتالي أثرت على الاستشراق كظاهرة فكرة وأكاديمية.

فالاستشراق الذي بدأ كنشأة مسيحية خالصة عام ١٣١٢م ـ كما رجّح كثير من الباحثين[٣] . وذلك حين أسس مجمع كنائس فيينا (church council of vienna) سلسلة من الكراسي الأكاديمية في اللغات العربية واليونانية والعبرية والسريانية في مدن مثل باريس وأكسفورد وبولونيا وأفينيون وسلامانكا وتعاون مع الاستعمار أثناء ازدهاره في عصر الكولونيالية الحديثة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يكون قد قام بدور "المتآمر على التاريخ والشخصية والمصير الشرقي لمئات الأعوام"[٤] حيث قام المستشرقون بتقديم الشرق بوصفه غريبًا متخلفًا، وأقل شأنًا؛ مما وفر مبررات إيديولوجية للسيطرة الغربية على البلدان

(١) مارشال هودجسون، مغامرة الإسلام، مرجع سابق، ١٠٧/١.

(٢) تعليق أسامة غاوجي في: مغامرة الإسلام، مرجع سابق، ١٠٧/١، هامش رقم ١.

(٣) انظر: أنور عبد الملك، الاستشراق في أزمة، ترجمة: د. حسن قبيسي، مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية، ع (٣٢)، إبريل ١٩٨٣، ص٧١..

(٤) وائل حلاق، قصور الاستشراق، ص٦٤.

الشرقية بالتالي كان هناك مبرر قوي للريبة في النتاج الاستشراقي ككل.

أما الآن وبعد انهيار الاستعمار، بعد الحرب العالمية الثانية، واستقلال الدول الشرقية وأخيرا بعد سقوط الاتحاد السوفيتي بعد الحرب الباردة، ومع التغييرات الجديدة، والتي يمكن التركيز على ثلاث عوامل منها فقط، وهي: العولمة الثقافية وأثرها الثقافي المتبادل بين الشرق والغرب، وأيضًا الهجرة والتنوع الثقافي وأخيرًا: النقد الداخلي أو النقد الاستشراقي للاستشراق.

وهذه العوامل كان لها أثرها البالغ في الفكر الاستشراقي مما يدعو إلى قراءة جديدة للاستشراق على النحو التالي:

١. العولمة وأثرها على الاستشراق

بعد الانفتاح الثقافي والذي انتجته العولمة وجعلت من العالم أكثر قربًا من خلال وسائل التواصل الحديثة؛ لم يعد الاستشراق كما كان من قبل هو المتحكم في نقل صورة الشرق والحكم عليها مسبقًا إلى الغرب؛ فهناك روافد متعددة لفهم الشرق تتحدي الصورة النمطية التي صنعها الاستشراق قديمًا، وبالتالي فإن الاستشراق بات في حاجة إلى تصحيح مساره ليثبت مصداقيته، وظهر خطابًا استشراقيًا أكثر توازنًا ومنهجية، ورفضًا للتصورات الاستشراقية القديمة التي كانت تقوم على دراسة الشرق من منظور أحادي، وإبداء صورة نمطية هزيلة من منظور استعلائي خارجي.

فالعولمة بما تتيحه من تداخل اقتصادي وتقني واجتماعي وثقافي بين مختلف الدول والمجتمعات؛ فإنها قد أسهمت في تغيير الطريقة التي تتفاعل بها الثقافات مع بعضها البعض، نتيجة لذلك ظهرت تغييرات في كيفية فهم الشعوب لبعضها، وأصبح من الضروري إعادة التفكير في الخطابات التقليدية، مثل الاستشراق، التي كانت تعتمد على الفصل أو الثنائية بين الشرق والغرب.

فالاستشراق بعد عصر العولمة لم يعد كما كان قبله، وأصبح الخطاب

الاستشراقي أكثر اعتدالًا وتوازنًا من جهة، وشهد تحولًا موضوعيًا من جهة أخرى، حيث أصبح تركيز الدراسات الاستشراقية على الحوار بين الثقافات بدلًا من التركيز على تفوق ثقافة على أخرى، وعلى إبراز مركزية الغرب، وبدلًا من التركيز على الفوارق الثقافية، برزت دراسات كثيرة تركز على القضايا المشتركة بين الثقافات، والاهتمام بالقضايا التي تتطلب تعاونًا عالميًا مثل البيئة، والهجرة، وحقوق الإنسان.

٢. تأثير الهجرة والتنوع الثقافي

واكب العولمة . ومع التغيرات السياسية والاجتماعية في الشرق . موجات من الهجرة من دول الشرق إلى الدول الغربية، مما جعل الشرق لم يعد مجرد مفهومٍ جغرافيٍ بعيدٍ؛ بل واقعًا معاشًا داخل المجتمعات الغربية.

وبالتالي، فإن وجود جاليات شرقية عربية وإسلامية في الغرب قد أسهم كثيرًا في كسر الصورة النمطية عن الشرق والتي كانت تعززها وتتبناها الدراسات الاستشراقية التقليدية، فالتفاعل المباشر بين الإنسان الغربي والشرقي، جعل الغربي لا يصدق الخطاب الإعلامي الاستشراقي الموجه ضد الشرق، خصوصًا في الأماكن والبلدان التي أسهمت فيها الجاليات الشرقية إسهامات حقيقية واستطاعت أن تقدم نفسها وثقافتها للآخر، ولم تكتف بالانزواء والاستفادة منهم، وإن كان في كثير من الأحوال كانت هناك ردود فعل أكثر سلبية وتطرفًا وعدائية مثل صعود الخطاب الشعبوي أو الإسلاموفوبيا.

لكن بشكل عام فإن الهجرة والتنوع الثقافي قد أسهمتا في تآكل الخطاب الاستشراقي التقليدي القائم على الفصل التام بين الشرق والغرب، وحفزت الحاجة إلى خطابات جديدة تتسم بمزيد من الإنصاف والاعتراف بالتداخل الثقافي والابتعاد عن النظرة الاستعلائية أو التعميمية.

كما أن اتصال الكثير من الكتاب والباحثين الشرقيين اتصالًا مباشرًا في

الجامعات والمراكز البحثية مع المستشرقين أنفسهم قد أسهم كذلك في تخفيف حدة العداء الاستشراقي، وتوضيح كثير من الالتباس لديهم، الناجم عن سوء فهم اللغة العربية أو الثقافة الإسلامية بشكل أوضح.

وللمستشرق الفرنسي أوليفيه روا (Oliveir Roy) كتاب قيم سماه "عولمة الإسلام" (l'Islam Mondialise) (٢٠٠٢) تناول فيه ظاهرة الهجرة وتأثيرها على الخطاب الإسلامي وكيف أن التفاعل الثقافي الناتج عن الهجرة يؤثر في إعادة تشكيل الخطاب حول الإسلام والشرق [١].

٣. النقد الداخلي للاستشراق

لا يمكن إهمال الدور الذي لعبه الاستشراق في التصحيح الذاتي، ودور الحركات التصحيحية للاستشراق من داخل المستشرقين أنفسهم، وهذا المنحى مع تعدد دوافعه، فإنه أثمر فائدتين أساسيتين، الفائدة الأولى: وهي أن وجهة النظر المبدية من ناحيتهم تختلف في دافعيتها ومنهجيتها عن الوجهة الإسلامية في نقد الاستشراق والرد عليه، من حيث أنها . في الغالب مجرد سعي إلى المعرفة والإنصاف، وليس دفاعًا عن مقدس لديهم، وكثيرًا ما تضفي أبعادًا جديدة لم يلتفت إليها الباحثون الإسلاميون، فهم الأدرى بثقافتهم وببني جلدتهم.

والفائدة الثانية: أن هذه الانتقادات قد أثبتت فاعليتها وتقبُّلها في الأوساط الغربية وتحول معها النقاش إلى نقاش موضوعي؛ أخرج الخلاف عن التلامز، إذ خرجت هذه الانتقادات من شخصيات استشراقية بارزة ومعروفة في الأوساط العلمية الغربية، ولا يمكن اتهامها بالسعي إلى تحقيق مأرب خاص.

فمثلا نجد الباحث الأمريكي في قسم دراسات الشرق الأوسط بجامعة نيويورك، زكاري لوكمان في كتابه "تاريخ الاستشراق وسياساته" يكتب في مقدمة

(١) للتوسع يمكن مراجعة: أوليفييه روا، عولمة الإسلام، ترجمة: لارا معلوف، الطبعة الثانية، بيروت، دار الساقي، ٢٠١٦، ص٥٧ وما بعدها.

كتابه مبررات ضرورة التوصيف الصحيح للإسلام، بعيدًا عن الأهواء والميول السياسية.

فيقول: "يبدو أن فهما أفضل لكيفية إدراك وفهم ودراسة ووصف الإسلام قد أصبح أكثر أهمية الآن من أي وقت مضى، خصوصًا بالنسبة للأمريكيين، فالولايات المتحدة أصبحت في وقتنا هذا متورطة بعمق في الشرق الأوسط ومناطق أخرى من العالم يغلب عليها الإسلام، كان لهذا التورط الذي يرجع إلى أكثر من نصف قرن، أبعاد سياسية وعسكرية واقتصادية وثقافية معقدة، ونتائج شديدة التأثير ... تبين هذه الأحداث .. أن الأمريكيين لا يستطيعون دفع ثمن استمرار جهلهم كعادتهم لتواريخ وسياسات وثقافات تلك المنطقة، ولا نستطيع أيضًا بعد اليوم أن نثق ثقة عمياء في تأكيدات وتوقعات ووعود الذين يتولون السلطة أو في أنواع المعرفة بشأن الشرق الأوسط والإسلام التي استعملت كثيرًا في تشكيل وتبرير السياسات المتبعة" (١).

ويؤكد لوكمان: "غالبا ما تنشأ هذه النزاعات بين الباحثين بشأن دراسة الشرق الأوسط أو الإسلام من اختلافات عميقة بشأن التوجهات أو المفاهيم أو أطر التفسير أو المناهج التي يجب أن تُستخدم لتحقيق فهمٍ أفضل لما يدرسونه، وقد اعتمد باحثو الشرق الأوسط والإسلام، مثل كل الحقول الأكاديمية والعلوم الأخرى في الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، صراحة أو ضمنا، على واحد أو آخر من أطر التفسير أو الطراز أو النماذج . والتي ترجع بجذورها غالبًا إلى رؤية أوسع بشأن كيفية عمل العالم، لكي يضيفوا معنى على أية فترة تاريخية أو مؤسسة اجتماعية أو حدث أو عملية يسعون إلى فهمها أو تفسيرها. ولكل توجه من هذه التوجهات مسلماته (غير المعترف بها غالبا) ومقولاته التحليلية ومناهجه المفضلة،

(١) انظر تاريخ الاستشراق وسياساته، ص٣٣-٣٤.

وكل منها يعرِّف ما يقوم بدراسته بطريقة مختلفة.

وعلى ذلك يميل كل توجه أو إطار تفسيري إلى الاهتمام بجوانب أو مظاهر معينة من المجتمع، أو الثقافة أو المكان أو الفترة التي يدرسها، بينما يتجاهل أو يقلل من شأن جوانب أخرى؛ وكل منها يفسر بطريقة مختلفة كيف ولماذا تتغير الأشياء (أو لا تتغير)؛ وكل منها يوصى بأنواع معينة من المصادر والمناهج لتفسيرها، باعتبارها الأكثر فائدة أو ارتباطا بالمهمة العلمية المطروحة. وفوق ذلك، تتشكل هذه النماذج المختلفة (والمتناقضة تماما فيما بينها أحيانا، دائما داخل سياقات تاريخية ومعاصرة معقدة، وبالتالي تتأثر بها، تشمل (بين أشياء أخرى) الطبائع الشخصية وشبكات العلاقات الشخصية والانحيازات والانتقالات الجيلية والمنافسات السياسية والميول والصراعات الثقافية والتطورات المؤسسية[١].

(١) المرجع السابق، ص٣٤-٣٥.

المبحث الثاني

منهجية إعادة قراءة الاستشراق

يمثل عام ١٩٧٨ (وهو العام الذي نشر فيه إدوارد سعيد كتابه في الاستشراق) عامًا فارقًا في فهم الاستشراق؛ فليس فهم الاستشراق بعد هذا العام كما كان قبله، ومع ذلك، وبعد مرور أكثر من أربعين عامًا على نشر هذا الكتاب ـ ومع بقاء أهميته وديناميته . إلا أننا الآن في حاجة إلى إعادة النظر إلى الاستشراق، نظرة جديدة تنبني على أساسين لا ثالث لهما هما:

الجانب المعرفي الذي أنتجه الاستشراق، والعلائق التاريخية التي أنتجت الاستشراق، أو بالأحرى أنتجت نوع المعرفة التي أنتجها الاستشراق.

وبالطبع تنحية التركيز على الجانب النقدي الذي كان خلف دوافع الاستشراق التي كان جل كتابات الباحثين المسلمين تدور حولها، ولا حاجة لمزيد دراسة عنها.

لقد أمضى كثير من ناقدي الاستشراق من الإسلاميين (مع عدم الأريحية لاستخدام هذا المصطلح) الكثير من الجهد في نقد الاستشراق والتشكيك فيه، وفي المقابل أمضى التغريبيون قدر ذلك الجهد في تعظيم المنتج الاستشراقي ومحاولة استيراده والتجذير له في المجتمع الإسلامي.

وبعد كل هذا الجهد حان الوقت لتبادل الأدوار بين التغربيين والإسلاميين ليس بالطبع دون النقد والتعظيم، وإنما طريقة النظرة، فبدلًا من النظرة الناقدة المتشككة، تأتي نظرة البحث عن الاستفادة الحقيقية المعرفية والعلمية والمنهجية من هذا التراث الهائل للمستشرقين من جانب الإسلاميين، وتقييم التجربة الاستشراقية في أزمنة ما بعد الاستعمار.

وإذا كانت الحضارة الإسلامية قد وسعت صدرًا بأبي نواس بخمرياته وعشقياته والمعري بفلسفاته وتجاوزاته .. تجتنى جيد أدبهم وترد رديئه، فإنها تسع

لكتابات المستشرقين أيضًا صدرًا، تأخذ جيدها وتشكر لهم، وترد عليهم خبيثهم. ومن هنا يأتي هذا المبحث ليعالج منهجية إعادة قراءة الاستشراق من خلال النقاط التالية:

أولًا: حول تصنيف المستشرقين

يتبدى هنا سؤال مهم، وهو: هل يمكن تقسيم الاستشراق إلى استشراق إيجابي واستشراق سلبي، وهل يمكن الحكم على مستشرق ما بأنه "صالح" وعلى آخر بأنه "خبيث".

وقبل الإجابة على هذا السؤال فإنه يحسن نقل كلام حلاق في هذا الصدد، حيث يقول: "تظل فكرة وجود مستشرق "صالح" وآخر "خبيث" في اعتقادي غير ذات أهمية كبيرة، أو ربما غير ذات أهمية، فلا يوجد مستشرق "خبيث" لمجرد أن ما يقوله أو يدرسه أو يكتبه فيه تزييف لصورة الشرق، ولا يوجد مستشرق "صالح" لمجرد أن صورته عن الشرق إيجابية، فالاستشراق لا يتوقف على مظهره الخطابي باعتباره إيجابيًا أو سلبيًا، ولكن يتوقف على مقدار تشبثه ببنية فكر معينة" (١).

ولا بأس من الاختلاف مع حلاق حول توصيف الاستشراق وتصنيفه إلى الإيجابي والسلبي، فالاستشراق الذي يقوم بتزييف صورة الشرق متعمدًا لا شك هو استشراق سلبي، بخلاف الاستشراق الذي أنصف الشرق، وإطلاق الإيجابية هنا مع أنه مجرد عمل بحثي منصف ليس فيه إضافة أو مبادرة رفض، فذلك بالنسبة إلى الوقت الذي غالبًا ما نشط فيه العمل الاستشراقي وكأن مهمته الأولى هو تشويه الشرق، فكان الاستشراق المنصف أو ما نطلق عليه الإيجابي يقوم بدور المدافع نيابة عن الشرق.

ومع ذلك فإن ما يعنينا هنا ليس تصنيف الاستشراق على حسب دفاعهم عن

(١) قصور الاستشراق، مرجع سابق، ص٣٤.

الشرق ومهاجمتهم له؛ وإنما التصنيف المنصف هو مدى اتباع منهجية علمية رصينة، وخروجًا عن الأهواء الشخصية والتحيزات الدينية والتحزبات السياسية.

كما يطرح حلاق سؤالًا آخر كثيرًا ما تم مناقشته إيجابًا وسلبًا، إلا أنه ما زال يمثل العضد الرئيسي لفقه الاستشراق وهو: "هل الاستشراق مبحث علمي أكاديمي، أم أنه بناء أيديولوجي، ومن ثم لا يجب أن يختلف تناوله عن أي خطاب آخر مثقل بالتحيزات" (١).

إن هذا السؤال رغم بساطته في الطرح؛ فإنه يحمل كثيرًا من التساؤلات الداخلية منها: هل الاستشراق حزمة واحدة، فهو إما في صف العلم والمنهج العلمي، أو في صف الإيديولوجيا المتحيزة، وبالتالي لا يمكن افتراض تعدد المدارس الاستشراقية مع تباعد أهدافها ومناهجها.

إن هذا التصنيف أو التبسيط للجهد الاستشراقي، الذي امتد زمانا حتى لا يعلم على وجه التحديد متى بدأ ومتى ينتهي، وامتد مكانًا لا يمكن حصره في بقعة جغرافية أو لسان لغوي واحد، وحمله الكثير من الرواد بحيث تعددت مشاربهم الفكرية والإيديولوجية، ومدارسهم العلمية والأكاديمية. فهذا التغول في البساطة مما يضر بدءًا بكيفية قراءة الاستشراق، ويضر انتهاء بكيفية الحكم عليها.

وعند القراءة المتنوعة المتأنية للإنتاج الاستشراقي؛ نجد أنه لا يتبع منهجًا علميًا واحدًا وطريقة متحدة في السرد؛ بل تنوعت مناهجه واختلفت بشكل كبير أطلق عليها البعض أنها تنوع منهجي، ولكن لا يخرج عن سياق الهدف العام للاستشراق، كما ذهب الجابري في كتابه الرؤية الاستشراقية حيث يقول: "ولكن تنوع رؤاهم الفلسفية ومناهجهم واختلافها لم يكن أبدًا خارج الإطار الذي يتحركون داخله والذي كانوا يعملون جميعًا على تقويته وتعزيزه، إطار المركزية الأوربية" (٢).

---

(١) المرجع السابق، ص٢٥-٢٦.

(٢) الرؤية الاستشراقية في الفلسفة الإسلامية، ضمن كتاب مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الجزء الأول، ص٣١٩.

وهناك رؤية أخرى مغايرة كما ذهب جاك بيرك في حوار الاستشراق: "ليس الاستشراق منهجًا بذاته؛ بل نتيجة هدف لمجموعة مناهج كثيرة لعلم الاجتماع والتاريخ والإنثربولوجيا الحضارية والألسنية ...إلخ" (١).

ومن قبل الجابري وبيرك، فقد ناقش كثير من الباحثين مسألة المنهج لدى المستشرقين ومن أبرزهم أنور عبد الملك في كتابه المهم الاستشراق في أزمة، يقول عبد الملك "توجد مؤلفات كثيرة ومواد متفرقة بمتناول الباحثين، وهي على غناها بالأفكار، نادرًا ما تتصف بالتماسك والدقة" (٢).

ويضرب عبد الملك المثل على ضعف المنهجية أو منهجية التحيز فيقول: "فعندما يستعرض "سير هاملتن أ. ر. جيب" تاريخ الإسلام، منذ أصوله حتى أيامنا هذه، يعتمد على تسعة عشر مؤلفًا أوربيًا، ليس بينهم سوى شرقي واحد هو أ. ع. عفيفي، وعندما انعقد مجمع السوسيولوجيا الإسلامية في بروكسل (سبتمبر ١٩٦١) ليستمع إلى عشرين متكلمًا، لم يكن بينهم عالم شرقي واحد، الأمر الذي أثار، بحق احتجاج "جاك بيرك" رغم ذلك فقد كان بيت القصيد في المجمع المذكور يتعلق بتطور المجتمعات العربية والإسلامية في القرن العشرين.. وكتابات "فون غرونباوم" الأخيرة تنتمي إلى النظرة نفسها، غير أن الثقافة الفلسفية الرصينة التي يتمتع بها مؤلفها تتيح له مرات عديدة أن يقدم تحليلات متراصة البنية تشتم منها الجهد المبذول لتخطي العادات القديمة"(٣).

والحق فإنه على الرغم من مصداقية هذه التحليلات، إلا أن ما يعيبها هو التعميم والإطلاق. فلا يمكن وصف الاستشراق ككل بعدم المنهجية، ولا يصح

(١) حوار الاستشراق، ص٣٢.

(٢) الاستشراق في أزمة، ترجمة: د. حسن قبيسي، مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية، ع (٣٢)، إبريل ١٩٨٣ص٧١.

(٣) الاستشراق في أزمة، ص٨٠-٨١.

إصدار حكم عام على جميع المستشرقين. كما أن تصنيفهم بناءً على انتماءاتهم الجغرافية، كفرنسيين أو ألمان، أو على أسس دينية وهوياتية في تعاملهم مع الشرق الإسلامي دينًا وتاريخًا ومجتمعًا، يُعد تسرعًا. إن القراءة المرجوة للاستشراق يجب أن تكون فردانية، بحيث يُعاد النظر في نتاج كل مستشرق على حدة، بعيدًا عن التصنيفات العامة، مع الأخذ بما يفيد وترك ما لا يفيد.

ثانيًا: قراءة النصوص في سياقها التاريخي والثقافي

قراءة النصوص في سياقها التاريخي والثقافي يعني تحليل النصوص من خلال فهم الظروف التاريخية والاجتماعية والثقافية التي أنتجت فيها، فالنص الاستشراقي مثل بقية النصوص الفكرة التي لا تنفصل عن واقعها؛ فهي نتاج البيئة التي أنتجت فيها، فتتأثر بالأحداث، والثقافة، والمعتقدات، والإيديولوجيات السائدة وقت كتابتها.

١. فهم الخلفية الفكرية للمستشرقين

عند قراءة النص الاستشراقي فإنه يلزم فهم الخلفية الفكرية للمستشرق للوقوف على دوافعه الحقيقية من وراء كتابة هذا النص، هل كان مكتوبًا لأهداف استعمارية أم أيديولوجية، وهل المستشرق بينه عداء ذاتي مع الإسلام وواضح تحامله، أم يعمل لجهة خاصة ينفذ أيديولوجيتها، أم هي آراء خاصة بالمستشرق نفسه توصل إليها من خلال المصادر الموجودة التي استطاع الاعتماد عليها، ويمكن فهم الخلفية الفكرية للمستشرق من خلال دراسة جنسيته، والأحداث التاريخية المرتبطة ببلده في هذا الوقت، وعلاقته بالشرق، وأيضًا هل دراسته ذات صلة لصيقة بالشرق أم لا.

"فبعض الاختصاصيين المتلهفين للتوصل إلى نتائج عامة إلى حد ما، ولكن غير المسلحين جيدا من أجل ذلك بسبب تكوينهم المعرفي المحدود جدًا، كانوا يستنتجون غالبًا خلاصات مهتزة أو خيالية قليلًا أو كثيرًا عندما يولون قيمة

ضخمة لبعض الملاحظات التفصيلية الصغيرة أو لبعض العوامل والنقاط التي أتيح لهم أن يدرسوها عن كثب"[١].

يعود سوء الفهم الاستشراقي للنصوص الإسلامية أو ما يطلق عليه بغياب المنهج في الغالب إلى ثلاثة أمور رئيسية، صعوبة فهم اللغة ومعانيها الباطنية أو ما يمكن القول فهم ظاهر اللغة لا روحها، وبالتالي يصعب تجاوز هذا الظاهر والابتناء عليه بما يبعد كثيرًا عن مقصود الخطاب.

عدم تجاوز الأيديولوجية أو العقيدة الدينية التي يتبناها المستشرق، وبالتالي فإن المستشرق هنا يعمد إلى قلب المعاني المجردة قصدًا وتفسيرها بما يخالف حقيقتها، وتشويه الحوادث التاريخية أو اجتزائها أو اختزالها.

"وظل يفترض أن الباحث الذي يبرع في اللغات الأساسية والنصوص الكلاسيكية للحضارة الإسلامية العليا قادرة على إصدار أقوال بشأن كل شيء تقريبًا متعلق بالإسلام، عبر امتدادات واسعة من الزمان والمكان"[٢].

٢. دراسة السياق التاريخي للنص

لفهم أعمق للنص الاستشراقي؛ فإنه يلزم قراءته من خلال سياقه التاريخي، ومعرفة الحقبة التاريخية التي كتب فيها النص بدقة، من أجل محاولة التعرف على أهداف المستشرق من كتابته، فالأحداث التاريخية الواقعة أثناء كتابة النص لا شك تساعد في فهم لغة النص وتوجهاته، وما إذا كان النص خادمًا للأحداث أم بحثًا موضوعيًا، فالأحداث السياسية كما الفكرية لها تأثيراتها المباشرة على رؤية المستشرق وعلى إنتاجيته.

(١) مكسيم رودنسون، الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، ترجمة: هاشم صالح، الطبعة الثانية، بيروت، دار الساقي، ٢٠٠٠م، ص٤٨.

(٢) تاريخ الاستشراق وسياساته، ص١٧٧-١٧٨.

٣. مقارنة النصوص مع مصادر شرقية معاصرة

النظر في كيفية تصوير الموضوع نفسه في النصوص العربية أو الشرقية، وهل كانت هناك فجوات كبيرة بين الطرح الاستشراقي والطرح الشرقي في هذا الموضوع، وهل اعتمد أحدهما على الآخر، مما يسلط الضوء على مدى بعد وقرب الكاتب من الحقائق وفهم مدى تحيز الكاتب وموضوعيته، ومدى فهمه للبيئة الشرقية، كما أن هذه المقارنة تسهم في فهم أكثر توازنا وموضوعية للموضوع محل الدراسة، إذ غالبًا ما يكون بين تصويرين متناقضين للشرق، خاصة في حقبة الاستعمار، وبالتالي تسهم في إعادة بناء الفهم التاريخي والثقافي للشرق.

ثالثًا: موضوعية القراءة

لا يعني قراءة النصوص في سياقها التاريخي والثقافي وفهم الخلفية الفكرية والثقافية للمستشرق؛ الحكم المسبق على النص، وإنما فقط أخذ ذلك في الاعتبار من أجل فهم سياق النص وليس حكمًا عليه، أو التحيز ضده، فمهما كانت الخلفية الفكرية للكاتب والبيئة التي عاش فيها، وتوجهاته السياسية والإيديولوجية فإنه لا يمنع بعد ذلك من قراءة النص المكتوب بكل موضوعية بعيدًا عن طبيعة كاتبه، أو بتعبير الناقد الفرنسي رولان بارت "موت المؤلف" فالنص ينبغي أن يكون مستقلًا عن حياة المؤلف أو نواياه الشخصية، وما فهم السياق التاريخي إلا من أجل فهم أوسع لبيئة النص التي نتج منها والتي أسهمت في إخراجه وفهم الرؤية السائدة في هذه البيئة، ثم تأتي قراءة النص قراءة موضوعية تمامًا بعيدًا عن أي أحكام مستبقة، فالموضوعية هي موازنة للعوامل الثقافية والسياسية والفكرية التي تؤثر في تفسير النصوص الاستشراقية؛ بحيث يتم تقديم تحليل نقدي يعكس الواقع دون الانجراف وراء الصور النمطية أو التحريفات. فالنقد لا يجب أن يكون عدائيًا، بل تحليليًا وبنَّاءً مع الاعتراف بأن النصوص الاستشراقية قد تحتوي على تحريفات أو تبسيطات للمجتمعات الشرقية.

١. التمييز بين النص والعوامل المؤثرة عليه

فالموضوعية هنا تعني القدرة على التمييز بين المحتوى نفسه للنص الاستشراقي وبين الظروف التي أثرت في تكوينه، بمعنى آخر يجب ألا يقتصر القارئ على تبني الأفكار المسبقة التي قد يحملها النص بسبب خلفية المؤلف؛ بل ينبغي أن يكون لديه القدرة على تحليل المحتوى بعيدًا عن التأثيرات السياسية أو الإيديولوجية.

يقول الجابري: "نحن لا ننكر مجهودات كثير من المستشرقين الذين أسهموا في نشر وتحقيق عدد مهم جدا من كتب التراث العربي الإسلامي والذين سلطوا كثيرًا من الأضواء على جوانبه ... ولكن يجب أن نكون واعين في الوقت ذاته بأن اهتمامهم لهذا التراث سواء على مستوى التحقيق والنشر أو على مستوى الدراسة والبحث لم يكن في أي حال من الأحوال ولا في أي وقت من الأوقات، من أجلنا نحن العرب والمسلمين، بل كان دومًا من أجلهم هم، وإذن فيجب أن يكون ذلك لا يصب اللعنات عليهم من الخارج، بل بتحليل فكرهم من داخله، والكشف عن دوافعه وأهدافه"(١).

٢. التوازن بين النقد والتقدير

في القراءة الموضوعية للاستشراق لا يعني أن يكون كل شيء نقدًا فقط، بل يجب أن يشمل التحليل التحقق من صحة بعض الأفكار التي تكون قد أسهمت في تطور الفهم الغربي للشرق.

هذا التوازن بين النقد والتقدير يعزز من القدرة على الفهم العميق للنصوص بدلًا من التأثير العاطفي أو المبالغة في التجاهل، أو القدح المبني على التحيز ضد الاستشراق بشكل عام.

(١) الرؤية الاستشراقية في الفلسفة الإسلامية، مرجع سابق، ص٣٣٥.

فالاستشراق . كما يقول الجابري .: "ليس موضوعًا في قفص الاتهام؛ بل العكس إن التنويه بجهود رجاله لا يتعدى حدود الموضوعية" و"الاعتراف بالجميل"(١).

ويشير الشيخ مصطفى عبد الرازق إلى هذا التقدير فيقول: "فإن الناظر فيما بذله الغربيون في دراسة الفلسفة الإسلامية وتاريخها لا يسعه إلا الإعجاب بصبرهم ونشاطهم، وسعة اطلاعهم وحسن طريقتهم، وإذا كنا ألمعنا إلى نزوات من الضعف الإنساني تشوب أحيانًا في خدمة العلم؛ فإنا نرجو أن يكون في تيقظ عواطف الخير في البشر وانسياقها إلى دعوة السلم العام والنزاهة الخالصة والإنصاف والتسامح، مدعاة للتعاون بين الناس جميعًا على خدمة العلم باعتباره نورًا لا ينبغي أن يخالط صفاءه كدر"(٢).

ويلخص الجابري وجهة نظر الشيخ عبد الرازق حول جهود المستشرقين خصوصًا في المجال الفلسفي فيقول: إن معرفة الغربيين بالثقافة العربية قبل النصف الأخير من القرن الماضي كانت هزيلة ناقصة ومستمدة في الغالب من المصادر اللاتينية، وأما الشرقيون أنفسهم فلم يكن في وسعهم، وقد كانوا مغلوبين على أمرهم أن يحيوا معالمهم ولا أن ينهضوا بتراثهم. أما خلال النصف الأخير من القرن الماضي فقد بدأ الموقف يتغير مع اتجاه المستشرقين .. في عناية نحو الدراسات الإسلامية ... فإليهم يرجع الفضل في اختراق هذه الطريق وتوجيه النظر إلى هذه الغاية، وقد نشطت حركة الاستشراق في الربع الأول من هذا القرن نشاطًا عظيمًا .. ولم يقف المستشرقون عند الطبع والنشر، بل حاولوا أن يكشفوا معالم الحياة العقلية في الإسلام وأرَّخوا لها جملة وتفصيلًا، فكتبوا عن الفلسفة والفلاسفة والكلام والمتكلمين والتصوف والمتصوفين يشرحون الآراء والمذاهب أو يترجمون للأشخاص والمدارس.

(١)المرجع سابق، ص٣١٤.

(٢) مصطفى عبد الرازق، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ٢٠١١م، ص٤٣.

ثم يضيف: ولو لم يقيض الله لفلاسفة الإسلام جماعة من المستشرقين وقفوا عليهم بعض بحوثهم ودراساتهم، لأصبحنا اليوم ونحن لا نعلم من أمرهم شيئًا مذكورًا(١).

رابعًا: تحليل التحيزات وإعادة بناء التصورات

تهدف إعادة قراءة الاستشراق إلى الوقوف على تحيزات المستشرقين، ليس فقط من أجل حصرها والرد عليها كما يفعل في كثير من الرد على شبه المستشرقين، وإنما أيضًا إلى فهمها وتحليلها تحليلًا دقيقًا، ومعرفة أسبابها ومصادرها الأساسية ومدى انتشارها وأثرها في الثقافتين الغربية والشرقية، ثم إعادة بناء وتقديم رؤية بديلة لهذه النصوص المتحيزة عبر منظور محلي معتمدًا على المراجع الأصيلة والمنهجية العلمية الموضوعية.

١. تحليل التحيزات

أول ما يهاجم الفكر الاستشراقي هو أنه مبني أساسًا على التحيزات ضد الشرق، سواء كانت هذه التحيزات ذات أساس سياسي أو أيديولوجي أو ثقافي.

فتبعية كثير من المستشرقين لحركات التنصير والاستعمار والصهيونية، قد أضفى على كتاباتهم تحيزًا واضحًا كل ما هو شرقي وانحرف كثيرًا عن الموضوعية العلمية في السرد.

يقول دكتور محمد خليفة حسن: "وتلك التبعية أثرت سلبًا على مسيرة الاستشراق عامة، وهزت صورة الاستشراق وشخصيته وعلاقته بالعلوم الأخرى، إذ بدا الاستشراق حركة فكرية خاضعة لقوى خارجية ولا يتمتع بالاستقلالية التي تتمتع بها الحركات الفكرية الأخرى، أو العلوم الإنسانية بوصفها علومًا مجردة محدودة المعالم ولها هويتها الخاصة"(٢).

(١) الجابري، الرؤية الاستشراقية في الفلسفة الإسلامية، ص٣١٣-٣١٤.

(٢) أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٢١هـ، ص٢٣.

ويحدد (مكسيم رودنسون) ملامح تحيزات الاستشراق وأثر ذلك على موضوعية الاستشراق: "إذا كان مكتب الدراسات الاستشراقية ضخمًا، فإن النواقض كبيرة جدًا أيضًا؛ فالنزعة المركزية الأوربية واضحة هنا .. فلم يكتف هؤلاء العلماء فقط في تنصيب المجتمع الأوربي والحضارة الأوربية كنموذج كوني أعلى صالح للجميع، ولم يكتفوا فقط بافتراض تفوقها على المستويات كافة؛ وإنما راحوا ينقلون العوامل الفاعلة في هذه الحضارة وذلك المجتمع ويطبقونها بشكل ميكانيكي على كل مكان وبشكل دائم. فقد احتفظوا من القرن الثامن عشر بمفهوم الحضارات الكلاسيكية المتفوقة على الحضارات الأخرى والتي تستحق الاهتمام الكلي تقريبًا، وهذه الرؤية المعجبة بالحضارات الكلاسيكية كانت مقترنة بتصور جوهراني عن نفس هذه الحضارات، فقد اعتقدوا أنها كانت مزودة بجوهر ثابت أيضًا، وكانوا يميلون للبحث عن هذا الجوهر في الدين. ولذا يمكن القول بأن الرؤيا الجوهرانية كانت أيضًا رؤية لاهوتية مركزية.

هكذا نجد إذن أنه يمكننا أن نصنف من بين نواقض تلك الفترة ارتباطها بالأفكار العامة الشائعة في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. نقصد بالأفكار الشائعة هنا: أولوية النموذج الأوربي وتفوقه، ثم وجود نوع الجوهرانية، العنصرية غالبًا، ونوع من المثالية الدينية غالبًا، هذه هي الأحكام المسبقة التي سيطرت على الأوربيين في تلك الفترة"[1].

هذه الشهادة المهمة المنصفة من مستشرق مهم مثل رودنسون، تؤكد على أن الاستشراق كما شهد كثيرًا من التحيزات والأحكام المسبقة؛ فإنه شهد أيضًا نوعًا من الإنصاف ومراجعة الذات، مما يجعل وضع الاستشراق في قالب واحد منافيًا للموضوعية العلمية.

(١) مكسيم رودنسون، الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، ص٤٩-٥٠.

ويؤكد الجابري أن هذه التحيزات قد تعدت إلى المناهج العلمية الوصفية، فقد شهدت هذه المناهج أيضًا وجهة متحيزة.

يقول الجابري: "فالمنهج الفيلولوجي الذي نشط أصحابه نشاطًا كبيرًا في النصف الثاني من القرن الماضي، في مجال تحقيق النصوص ونقدها والكشف عما كان مغمورًا منها . سواء النصوص اليونانية واللاتينية أو غيرها . كانت نتيجة ظهور معطيات جديدة تفرض تعديل الرؤى "الشمولية" أو التخلي عنها نهائيًا وتبني ظهور النظرة الفيلولوجية التجزيئية التي تجتهد في رد كل فكرة إلى "أصل" سابق، إن هذا المنهج لم يكن هو الآخر يبحث عن أصول للنظريات الفلسفية الأوربية خارج إطار المركزية الأوربية، لقد كان المجال الوحيد الذي يبحث فيه الفيلولوجيون عن أصول للأفكار التي يقول بها فلاسفة أوربا هو المجال الأوربي ذاته، ولم يحدث قط أن اعترفوا بأصل غير أوربي لأية فلسفة أو فكرة"(١).

وهذا أيضًا لا نريد أن نلوم أو ندين أو نستنكر، وإنما نريد بكل بساطة أن نلاحظ ونفهم ونستخلص النتائج والعبر: "فلا ينفع الاستنكار بعد فوات الأوان، كما أنه لا معنى لمحاكمة فترة بمعايير فترة لاحقة ومختلفة، ولكن هذا لا ينفي أهمية الكمية الضخمة من المعلومات التي حصلوا عليها والتي لا ينبغي أن نحتقرها أبدًا كما يفعل الكثيرون اليوم، وأنه يمكننا في الغالب أن نستخلص منها ما لم يرد باحثوا تلك الفترة أن يستخلصوه أو ما لم يروه، وبالتالي يمكننا استغلال هذه المعلومات ضمن منظور جديد يعد تخليصها من الأحكام العنصرية المسبقة"(٢).

(١) الجابري، الرؤية الاستشراقية في الفلسفة الإسلامية، ص٣١١.

(٢) مكسيم رودنسون، الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، ص٥٠-٥١.

٢. إعادة بناء التصورات

يأتي بعد ذلك الدور الإيجابي للدارس الشرقي، إذ لا يكفي أبدًا مجرد قراءة الاستشراق قراءة نقدية سواء بالطعن واللمز أو رد الشبهات والتحيزات أو الرفض بالكلية وإنما إعادة بناء وتقديم رؤية متزنة وشاملة للشرق والثقافة الإسلامية، تهدف إلى تصحيح الصورة النمطية، التي نشأت نتيجة الدعاية الاستشراقية وإبراز الصورة الحقيقية، أو ما يمكن أن يطلق عليه إعادة تشكيل الرواية من خلال تقديم رؤية جديدة للشرق تستند إلى المصادر الأصلية، والحقائق المنطقية، والوقائع، وخلق سردية عادلة تبرز قيم الشرق وإسهاماته وفعاليته.

إذن فإن الاستشراق ينبغي أن يكون نقطة انطلاق يستفاد من المكتسب العلمي والكم الهائل للمعلومات التي خلفها، لا سيما في الفترات التي كان هو العنصر الوحيد المسيطر على نشر الرأي، وكتابة الأحداث، في الحقب الاستعمارية، ثم البناء على هذا المكتسب، بعد نقده وتمحيصه، والوقوف على علله وخبائثه وتحيزاته، مع المقارنة والموازنة بما توافر من المصادر الإسلامية والشرقية، التي تناولت العنصر المدروس، حتى يتم إعادة تصور متوازن ومتكامل وشامل ومتقبل.

لا ينبغي أبدًا مجرد تبني الموقف الرافض للتراث الاستشراقي أو الموقف المستريب بالكلية، فالاستشراق مهما كانت تحيزاته ومسالبه؛ فإنه لا يعدم الإفادة منه، منهجيًا أو معلوماتيًا.

كما يقول مكسيم: "هناك عامل آخر يتعلق بأزمة العقلية المركزية الأوربية ودخول المتخصصين الذين ينتمون إلى البلاد المدروسة إلى ساحة البحث العلمي لأول مرة. ذلك أنه تحت تأثير فورة الاستقلال والإيديولوجيا المضادة للاستعمار التي رافقتها وتلتها أصبح الإغراء كبيرًا اليوم، وبالأخص لدى الأجيال الجديدة، في أن يرفض كل المكتسب العلمي المتراكم سابقًا باعتباره ملوثًا بالعقلية المركزية

الأوربية والعقلية الاستعمارية، وأيا يكن تعاطفنا أو تفهمنا كبيرًا للمشاعر التي تشكل قاعدة هذا الاتجاه، فإنه ينبغي ألا ننسى الحقيقة التالية: أن أوربا لأسباب لا علاقة لها إطلاقًا بالتفوق العنصري، هي التي مشت (حتى الآن) إلى أقصى حد في تطبيق المناهج العلمية التمحيصية الدقيقة، نقول ذلك حتى لو كانت هذه المناهج قد ابتدأت سابقًا في الحضارات المدروسة غير الأوربية"[١].

(١) مكسيم رودنسون، الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، ص٥٢.

المبحث الثالث

ثمرات إعادة قراءة النص الاستشراقي

إذا كانت الثمرة هي النتيجة العملية أو الفائدة الملموسة المرجوة بعد تحصيل الهدف، فإن المقصود بثمرات قراءة النص الاستشراقي هنا يعني ما يترتب على هذه القراءة مجددًا من إنجازات واقعية وفوائد قابلة للقياس.

وإذا رحنا نعدد هذه الثمرات فإننا سوف نجدها كثيرة، لكننا سوف نحاول هنا التركيز على أهمها من ناحية، والقابلة للقياس من ناحية ثانية، والمباشرة التي لا يُختلف عليها من ناحية أخيرة.

ويمكن حصر هذه الثمرات في:

أولًا: الاستفادة من كثرة النتاج الاستشراقي وإثراء الدراسات الأكاديمية

إذ يمكن من خلال إعادة قراءة النص الاستشراقي، وقراءة النص غير المقروء وخصوصًا الذي لم يترجم بعد إلى اللغة العربية، الحصول على معلومات ذات قيمة علمية كبيرة تثري الحياة الأكاديمية في شتى المجالات، وذلك لكثرة النتاج الاستشراقي من ناحية الكم والكيف.

فبالنسبة لناحية الكم نجد كثرة بالغة من الإنتاج العلمي، "إذ إن مجموع ما نشره المستشرقون بين سنة ١٩٠٦م إلى سنة ١٩٩١م فقط يزيد على ٧٥٠٠٠ دراسة نشرت في الدوريات الاستشراقية والعربية منها ٣٥٠٠٠ دراسة بين ١٩٠٦ إلى سنة ١٩٦٠، هذا عدا عن الكتب والمحاضرات ووقائع المؤتمرات"[(١)].

ويذكر إدوارد سعيد أن عدد ما ألفوه عن الشرق في قرن ونصف (منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين ستين ألف كتاب) هذا بالطبع إضافة إلى نتاجهم غير المطبوع مثل المحاضرات الجامعية إذ إن أغلبهم يعمل في مجال التدريس الجامعي ويلقن طلابه آراءه ومناهجه وأفكاره من خلال

(١) علي بن إبراهيم النملة، مصادر الاستشراق والمستشرقين ومصدريتهم، الطبعة الثانية، بيروت، بيسان للنشر والتوزيع، ٢٠١١م، ص٨٨.

محاضراته الخاصة المباشرة معهم في الجامعة، وأيضًا نتاجهم غير المباشر من خلال طلابهم الذين يشرفون عليهم في مرحلتي الماجستير والدكتوراه.

وأيضًا إضافة إلى أعمالهم الكثيرة والمتقنة عادة في تحقيق التراث الشرقي والإسلامي ونشره وترجماتهم لكثير من هذا التراث، والذي يضيفون عليه تعليقات ومقدمات ودراسات.

إن من الصعب حصر النتاج الاستشراقي كمًا، كما إنه ليس من الإنصاف الحكم على هذا النتاج من خلال دراسة أقل من عشر معشاره فقط، بل إن غالب النتاج الاستشراقي لم يعرفه الشرق بعد ولم يدرسه، واكتفى فقط بدراسة أشهر الأعمال الاستشراقية سواء لشهرة منتجها من المستشرقين، أم لتحديها الأصول الإسلامية.

وبالتالي فلن يعدم أبدًا تحصيل فائدة جديدة من دراسة التراث الاستشراقي غير المدروس، جنبا إلى جنب مع إعادة قراءة التراث الاستشراقي المدروس.

فالنصوص الاستشراقية تحتوي على معلومات قيمة عن اللغات والثقافات الشرقية، فإعادة قراءة هذه النصوص بشكل نقدي تمكن الباحثين من استخلاص الكثير من المعلومات القيمة، بالطبع مع مراعاة التحيزات والمغالطات الموجودة في النص.

كما أن هذه النصوص القديمة قد تتضمن جوانب مهمة من التاريخ أو الفكر لم تلاحظ في السياقات الأكاديمية الحديثة؛ فإعادة قراءتها قد تأسهم في إلقاء الضوء على أبعاد أو علاقات كانت مهملة، مثال ذلك أن دراسة تأثير الفلسفة الإسلامية على الفلسفة الأوربية في العصور الوسطى كانت مهمشة لفترة طويلة. وبإعادة قراءة النصوص الاستشراقية يمكن أن يكشف عن الأبعاد الفكرية التي لم يتم تناولها في الدراسات الحديثة[١].

(١) يراجع للتوسع: جورج سارتون، تاريخ العلم، القاهرة، المركز القومي للترجمة. ٢٠١٠م.

وأيضًا، فإن إعادة قراءة النصوص الاستشراقية قد يساعد في تضمين أفكار ورؤى متنوعة خارج الإطار المحلي، مما يأسهم في تحقيق شمولية في الدراسات وإضفاء أبعادًا وتأصيل البحث العلمي بشكل أعمق.

أما بالنسبة لناحية الكيف، فقد ألفوا تقريبًا في كل المجالات المهمة المتعلقة بالأمور الإسلامية الحيوية، "فألفوا في التاريخ العربي والإسلامي، وفي علم الكلام، وفي الشريعة، وفي الفلسفة الإسلامية والتصوف الإسلامي، وفي تاريخ أدب اللغة العربية، وفي الدراسات المتعلقة بالقرآن والسنة النبوية، وفي النحو العربي وفقه اللغة، ولم يتركوا مجالًا من مجالات العلوم العربية والإسلامية إلا وألفوا فيه"(١).

إضافة إلى كتاباتهم المشهورة في أدب الرحلات، ووصف واستكشاف الشرق، بغض النظر عن الهدف من هذه الكتابات . مهما كان سوءه، ومن أهم الأمثلة على ذلك كتاب "وصف مصر" الذي ألفه "المعهد" الذي أنشأه نابليون، "فمن أولى لحظات الاحتلال تقريبًا حرص نابليون على أن يبدأ المعهد اجتماعاته وتجاربه، أو بلغة العصر الحاضر مهمته لتقصي الحقائق، وكان أهم شيء تسجيل كل ما يقال وما يشاهد وما يدرس، وقد اكتمل التسجيل حقًا في هذا العمل الجماعي العظيم الذي يمثل استيلاء بلد على بلد آخر، وهو كتاب "وصف مصر" الذي نشر في ثلاثة وعشرين مجلدًا ضخما في الفترة ١٨٠٩ إلى ١٨٢٨.

ولا يقتصر الطابع الفريد لكتاب وصف مصر على حجمه الهائل، أو حتى على ذكاء المشاركين فيه، ولكنه يتجلى أيضًا في موقفه من الموضوع المعالج، وهذا الموقف هو الذي يكسب الكتاب أهمية كبيرة في دراسة المشروعات الاستشراقية الحديثة"(٢).

(١) د. محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، كتاب الأمة، الطبعة الأولى، قطر، رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية، صفر، ١٤٠٤هـ، ص٦٥-٦٦.

(٢) إدوارد سعيد، الاستشراق، مرجع سابق، ص١٥٧.

إن نابليون بهذا الكتاب قد أراد أن ينقل مصر إلى فرنسا، فكان هذا الكتاب الفذ وإن كانت صناعته لخدمة الغازي وليس للمصريين؛ فإنه لا يعدم الإفادة البالغة منه، منهجيًا ومعلوماتيًا إذ يعتبر أنه أكبر وأول عمل جماعي وعالمي ناقش الصورة الكاملة عن مصر، وخصوصًا بعد انتهاء الحقبة الاستعمارية.

ثانيًا: تفكيك الصور النمطية عن الشرق

الصور النمطية هي تصورات ثابتة ومبسطة وسطحية يتم إطلاقها على مجموعة أو ثقافة ومن ثم فإن تفكيك هذه الصورة النمطية التي استخدمها الاستشراق لوصف الشرق، يعني دراسة النص الاستشراقي دراسة نقدية تهدف إلى كشف التحيزات والتصورات الخاطئة أو المتعمدة في الخطاب الاستشراقي.

فمثلًا استخدم الاستشراق بعض الصور النمطية التي لخص به الشرق وروج لها، حتى صارت هذه الصور وكأنها مسلمات حقيقية في المخيال الغربي عن الشرق، فالشرق . في النمط الغربي . عالم جامد وغير قابل للتقدم، وأن الاستبداد والتخلف جزء من تكوينه وثقافته، كما اعتاد برنارد لويس على تقديم هذه الصورة عنه، وهو عالم مليء بالسحر والغموض، مثلما يقدمه روبرت إيروين في "ألف ليلة وليلة"، وأخيرًا برز نمط جديد في الغرب وهو التصوير المخيف والعدائي الذي يسم به الإسلام والمسلمين، مثل ما تقدمه الأفلام الغربية التي تصور المسلمين كإرهابيين ومحبين للدماء.

فالاستشراق اعتاد على رسم صورة نمطية غير دقيقة عن الشرق والشرقيين، فكما يذكر أنور عبد الملك ويؤكد كلامه إدوارد سعيد أن الاستشراق يعتبر الشرق والشرقيين "موضوعًا" للدراسة ويطبعها بطابع غيرية معينة، مثل كل ماه مختلف "ذاتا" أو "موضوعًا" ولكنها غيرية تشكله ذات طابع جوهري .. وسوف يكون "موضوع" الدراسة المذكور، على نحو ما جرت عليه العادة، سلبيًا لا مشاركة فيه، وهو يكتسب ذاتي "تاريخية" وهو قبل كل شيء غير فاعل، مسلوب الاستقلال

ومسلوب السيادة بالنسبة لنفسه، وأما الشرق أو الشرقي أو "الذات" الوحيدة التي يسمح لها "بالدخول" في أقصى الحدود فهي الكائن المغترب فلسفيًا، بمعنى أنه غير ذاته في علاقته بذاته، فالآخرون هم الذين يطرحونه ويفهمونه ويعرفونه ويحركونه.

كما نجد أن المستشرقين يضعون تصورًا أو مفهومًا جوهريًا للبلدان والأمم والشعوب الشرقية التي يدرسونها، وهو تصور يعبر عن نفسه من خلال نمطية عرقية محددة الملامح.. وسرعان ما يسيرون بها نحو العنصرية.

وهكذا ينتهي الأمر بالتنميط القائم على خصوصية حقيقية، لكنه منفصل عن التاريخ، ومن ثم يعتبر شيئًا مجردًا أو جوهرًا خالصًا، وهو ما يحيل "الموضوع" المدروس إلى كائن آخر، وتكون "الذات" التي تدرسه كائنًا له وجوده "المتعالي" كما ينتهي الأمر إلى أن يصير لدينا جنس الإنسان الصيني، وجنس الإنسان العربي، وجنس الإنسان الإفريقي، والمفهوم بأن الإنسان أي "الإنسان السوي" (أو الطبيعي) هو الأوربي المنتمي إلى الفترة التاريخية أي منذ عهد اليونان القديمة، وهكذا نرى كيف أن الفترة من القرن الثامن عشر إلى العشرين قد شهدت ما كشف عنه النقاب ماركس وإنجلز من هيمنة الأقليات التي تملك (رؤوس الأموال) وكل ما هدمه فرويد من تفسير لكل شيء في ضوء المركزية الإنسانية، وما صاحب هذا وذلك من مركزية أوربية في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية، وبصفة أخص في العلوم ذات العلاقة المباشرة بالشعوب غير الأوربية[1].

فتفكيك الصورة النمطية المجتزئة والمخزنة في العقلية والخيال الغربي، عملية ذات ضرورة بالغة لإعادة صياغة العلاقة بين الشرق والغرب على أسس متزنة وأكثر عدلًا واحترامًا، من خلال التحليل النقدي للنصوص الاستشراقية وكشف

(١) انظر، أنور عبد الملك، الاستشراق في أزمة، إدوارد سعيد، الاستشراق، ص١٧٥-١٧٦.

التحيزات والتلبسات، وبالتالي يمكننا تجاوز الخطاب الاستشراقي التقليدي وإنتاج خطاب أكثر عدالة وواقعية يعكس التنوع والتعددية الثقافية في الشرق مما يتحدى التصوير الأحادي للشرق الذي غالبا ما تضمنته الدراسات الاستشراقية ويصحح الصورة التقليدية القميئة.

ثالثًا: إعادة صياغة العلاقة بين الشرق والغرب

العلاقة بين الشرق والغرب كانت دائمًا . خصوصًا في الكتابات الاستشراقية في الحقبة الاستعمارية . مشحونة بالصور النمطية التي تمثل الشرق بالتخلف والتبعية والاستبداد، وتهدف إلى الهيمنة والاستغلال السياسي والاقتصادي.

ومن ناحية الشرق فإنه انقسم إلى أصحاب موقف عدائي ينظرون إلى الغرب نظرة متوجسة دائمًا، تحمل معها الكراهية والعداء، ولا تتقبل منه نفعًا ولا ضرًا، مشككة في كل ما يأتي من قبله، وأصحاب موقف تبعي تقليدي، يتخذون الغرب قدوة وإمامًا، ومقياسًا للتقدم والتحرر، متقبلين منه خيره وشره، بل إنهم صاروا يعتمدون على الروايات الغربية في فهم الشرق وفهم أنفسهم.

وبالتالي فإن إعادة قراءة الاستشراق تهدف إلى إعادة صياغة علاقة متوازنة بين الشرق والغرب، قائمة على التوازن والندية والشراكة والحوار الثقافي، وبالطبع تصحيح التحيزات.

إن الوقت الآن مناسب جدًا لإعادة هذه القراءة، قراءة متأنية بعيدًا عن الضغوط النفسية والعداء المتبادل وقت إنتاجها . أمام الاستعمار . وقراءتها. تهدف هذه القراءة إلى إعادة تقييم النظرة الغربية للشرق وتصحيحها، وإبراز الإسهامات المتبادلة بين الشرق والغرب، وكيف أثر الغرب في الشرق والشرق في الغرب، وبالتالي تجاوز الثنائية القطبية: ثنائية "الشرق التقليدي" و"الغرب الحديث"[١].

(١) من الأمثلة على ذلك كتاب فيلسوف العلم، جورج سارتون، في كتابه المهم "تاريخ العلم" حيث تناول التأثيرات المتبادلة بين الشرق والغرب وعالمية العلم.

وبالتالي تهدف هذه القراءة النقدية المتوسعة إلى تعزيز التفاهم الثقافي، وتقليل التوترات والعداءات بين الحضارات المختلفة وإنهاء الاستعلاء الثقافي، وتعزيز الشراكة في الجوانب المختلفة التي تقبل وتفيد الشراكة فيها(١).

وبالطبع لم يكن الأمر سهلًا؛ إذ ما زال هناك الكثير من العقبات والتحديات والتي تتمثل غالبًا، في استمرار الصور النمطية، حيث ما زال الإعلام الغربي يبث أفكاره العدائية وينتج صورا مشوهة ضد الشرق(٢).

كما أن المراكز البحثية والجامعات ما زالت تخدم الجهات السياسية من أجل السيطرة على موارد الشرق وتتحكم في قراراته. لكن التحدي الأكبر هو حالة التشظي في الشرق وضعف الخطاب المحلي، وعدم الاهتمام بإنتاج راسات نقدية موازية تقوم بدراسة الغرب، وتصحيح صورة الشرق.

رابعًا: إلهام الباحثين بدراسات جديدة

فإعادة قراءة الاستشراق والدراسات النقدية للاستشراق، تدفع الباحثين إلى إنتاج أبحاث مبتكرة تسعى لتقديم رؤى جديدة ومتوازنة لفهم الشرق، ولفت أنظارهم إلى دراسة قضايا وموضوعات لم تلق الاهتمام الكافي، أو إعادة تحليل قضايا قديمة من زوايا جديدة.

فمثلًا إن دراسات الاستشراق . حتى الدراسات الجادة والعلمية المنصفة منها . كانت نظرة خارجية للشرق دون تفاعل حقيقي مع مصادر داخلية وإبراز أو الاعتماد على مصادر محلية، وهنا تأتي الحاجة إلى دراسات تشاركية تتبنى

(١) يمكن الاستفادة من: كتاب بيتر فرانكفوبان، طريق الحرير، تاريخ العالم عبر التجارة ترجمة: د. أحمد العدوي. الطبعة الأولى، دار أدب للنشر والتوزيع، ٢٠٢٢م. حيث تناول دراسة طريق الحرير كمثال على التبادل الثقافي والتجاري بين الشرق والغرب، وكتاب هومي بابا، موقع الثقافة، ترجمة: ثائر ديب، الطبعة الأولى، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤م .

(٢) يراجع على سبيل المثال كتاب جاك شاهين، الصورة الشريرة للعرب في السينما الأمريكية. ترجمة: خيرية البشلاوي، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٣.

النصرة المحلية وتبرز وجهة النظر الداخلية في ذات الموضوع المدروس وفي نفس ظروف حقبة الدراسة.

كذلك يمكن الاستفادة من إنتاج الاستشراق في مجالات معينة ودمجها مع حقول ومجالات معرفية أخرى، لإنتاج دراسات بينية تستفيد بالمنتج الاستشراقي في بعض حقول تميزه وأيضًا من الدراسات المهمة التي ما زالت في حاجة إلى بذل الباحثين الكثير من الجهد، وهي إعادة التأريخ لحقبة الاستعمار، من خلال تفكيك الروايات الاستشراقية عن الاستعمار وأدواره في عملية التمدين والتحديث للشرق التي تم الترويج لها في كثير من الكتابات الاستشراقية واستبدالها بدراسات تكشف الآثار السلبية للاستعمار على المجتمعات الشرقية، والفظائع المرتكبة في هذه الحقبة.

إن إعادة قراءة الاستشراق سوف يلهم بلا شك كثير من الباحثين ويشجعهم على دراسة بعض المواضع الحيوية سواء الفكرية أو التاريخية أو الدينية، والتي ما زال صداها يتردد وتأثيرها يتجاوز الزمان والمكان، مما يسهم في إبراز الصوت الإسلامي في هذه القضايا، ويجنب خبايات المستشرقين عن هذه الثقافة.

خاتمة

إن هذا البحث يمثل دعوة لإعادة النظر في الاستشراق كموضوع أكاديمي وثقافي بعيدًا عن التحيزات المسبقة. ومن خلال قراءة نقدية متأنية، يمكن تجاوز الإشكالات التي ارتبطت بهذا الحقل العلمي، مما يسهم في تحقيق فهم أعمق وأكثر توازنًا للعلاقة بين الشرق والغرب. إن تعزيز الحوار الثقافي والبحث المشترك بين الحضارات يمثل الخطوة الأولى نحو تجاوز العداء وبناء شراكات معرفية تسهم في تقدم البشرية جمعاء.

أهم النتائج:

١. الاستشراق كمفهوم متنوع :أثبت البحث أن الاستشراق ليس تيارًا موحدًا، بل هو ظاهرة متعددة المدارس والمناهج التي تختلف بحسب السياقات التاريخية والثقافية. هذا التنوع يجعل من الضروري تجاوز التصورات النمطية التي تضع الاستشراق في قالب موحد.

٢. التداخل بين العلمي والأيديولوجي :أظهرت الدراسة أن الخطاب الاستشراقي يتداخل فيه البعد العلمي مع الأبعاد السياسية والثقافية، مما يجعل قراءة هذا الخطاب بحاجة إلى نقد متأنٍ يأخذ بعين الاعتبار هذه الأبعاد.

٣. الإرث الاستشراقي كأداة معرفية :رغم التحيزات التي شابت كثيرًا من الدراسات الاستشراقية، فإن النتاج الاستشراقي يمثل مصدرًا غنيًا بالمعلومات يمكن توظيفه في إثراء الدراسات الأكاديمية، شريطة قراءته نقديًا وموضوعيًا.

٤. تفكيك الصور النمطية :تناول البحث أهمية تفكيك الصور النمطية التي أسهمت الدراسات الاستشراقية التقليدية في ترسيخها، مما يعزز من فهم أعمق وأكثر عدلًا للعلاقات بين الشرق والغرب.

٥. أخطاء القراءة التقليدية :توصل البحث إلى أن الدراسات التي تعاملت مع الاستشراق بوصفه ظاهرة عدائية موحدة قد وقعت في أخطاء منهجية، حيث أهملت الجوانب المفيدة من الإرث الاستشراقي.

التوصيات:

١. إعادة قراءة النصوص الاستشراقية :يوصي البحث بضرورة قراءة النصوص الاستشراقية في سياقاتها التاريخية والثقافية، مع التركيز على فهم الخلفيات الفكرية للمستشرقين.
٢. تعزيز الدراسات النقدية :يجب أن تتوجه الدراسات الأكاديمية إلى نقد الخطاب الاستشراقي بأسلوب علمي موضوعي يوازن بين النقد والتقدير.
٣. تشجيع الحوار الثقافي :من المهم تعزيز الحوار الثقافي بين الشرق والغرب، بالاعتماد على فهم متبادل يتجاوز الصور النمطية.
٤. تطوير المناهج الأكاديمية :توظيف النتاج الاستشراقي في المناهج الأكاديمية لتقديم رؤى متعددة عن العلاقة بين الشرق والغرب.
٥. إنشاء مراكز بحثية مشتركة :يوصي البحث بإنشاء مراكز بحثية تجمع بين باحثين شرقيين وغربيين لدراسة القضايا المشتركة وتعزيز التفاهم الثقافي.

أهم المراجع

١. أحمد الشيخ، حوار الاستشراق: من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب، الطبعة الأولى، القاهرة: المركز العربي للدراسات الغربية، ١٩٩٩.

٢. إدوارد سعيد، الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة: محمد عناني، الطبعة الأولى، القاهرة: دار رؤية للنشر، ٢٠٠٦.

٣. إدوارد سعيد، تعقيبات على الاستشراق، ترجمة: صبحي حديدي، الطبعة الأولى، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٦.

٤. أوليفييه روا، عولمة الإسلام، ترجمة: لارا معلوف، الطبعة الثانية، بيروت: دار الساقي، ٢٠١٦.

٥. بيتر فرانكفوبان، طريق الحرير، ترجمة: د. أحمد العدوي. الطبعة الأولى، دار أدب للنشر والتوزيع، ٢٠٢٢م. ٧. أنور عبد الملك ، الاستشراق في أزمة، ترجمة: حسن قبيسي، مجلة الإنماء العربي.

٦. جاك شاهين، الصورة الشريرة للعرب في السينما الأمريكية. ترجمة: خيرية البشلاوي، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٣.

٧. جورج سارتون، تاريخ العلم،. القاهرة: المركز القومي للترجمة. ٢٠١٠م.

٨. زكاري لوكمان، تاريخ الاستشراق وسياساته: الصراع على تفسير الشرق الأوسط، الطبعة الأولى، القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧.

٩. علي بن إبراهيم النملة، الاستشراق ومصادره ومصدريته، الطبعة الثانية، بيروت: بيسان للنشر والتوزيع، ٢٠١١.

١٠. قاسم السمرائي، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، الطبعة الأولى، الرياض: دار الرفاعي للنشر والتوزيع، ١٩٨٣م.

١١. محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الحضارية، كتاب الأمة، الطبعة الأولى، قطر: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، صفر ١٤٠٤ هـ.

١٢. محمد خليفة حسن، أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٢١هـ.
١٣. محمد عابد الجابري، الرؤية الاستشراقية في الفلسفة الإسلامية، ضمن كتاب مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.
١٤. مصطفى عبد الرازق، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ٢٠١١م.
١٥. مكسيم رودنسون، الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، ترجمة: هاشم صالح، الطبعة الثانية، بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠.
١٦. هومي بابا، موقع الثقافة، ترجمة: ثائر ديب، الطبعة الأولى، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤م.
١٧. وائل حلاق، قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحداثي، ترجمة: عمرو عثمان، الطبعة الأولى، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠١٩.